١٤٦

روايات احلام

فراشة المحبة

# لعبة الحب والقدر



# فراشة المحبة

# روايات احلام

## لعبة الحب والقدر

- أنت مدينة لي مقابل أجرة سفرك !
- إذن هذا هو سبب كرمك ؟ لقد وثقت بك . . .
- حقاً ؟ آن الوقت ليلقنك أحدهم درساً .
- هل تحاول إخافتي ؟
- إخافتك ؟ الآنسة العصرية لا يخيفها مجرد رجل . . .
- أبغضك !
- عظيم . . . فليست العدائية شعوراً سلبياً .

هل بدأت أم انتهت هنا رحلة جنيفر الطويلة مع اللورد ماك كونال ؟ أبعد هذا الفخ الذي أوقعت نفسها فيه قد يكون هناك نهاية أفضل ؟ أم لعل النهاية الحقيقية ستكتبها أختها الفاتنة عندما تتعرف إليه وتسقطه في حبائل سحرها ؟


لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات ٦ د. مصر ٤ ج. [illegible]
سوريا ٧٥ ل.س. قطر ٦ ر. المغرب ١٥ د. اليمن
الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ ف. تونس ١,٥ د. السودان
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠ ب. العراق

# ١ ـ غريبان على الطريق

أمضت جنيفر غرايون الدقائق الخمسة الأكثر عذاباً في حياتها وهي تصغي إلى خطاب فرانسيس پالمر التي تعتبر الرجال طغاة ظالمين يستغلون جهل الأنثى فيعملون على استعباد جنسها.. كانت المرأة تشير إلى تغير الزمان، واستعداد النساء في كل مكان للنضال من أجل المساواة في الحقوق والواجبات.. لن يكنّ بعد اليوم عبدات في المطبخ، ولن يسمحن بمزيد من السيطرة الذكورية.

تململت جنيفر غرايون فوق المقعد القاسي إلى جانب شقيقتها. كلير جميلة جداً وتتمتع بأنوثة وقدرة على إخضاع أي رجل، وإجباره على السير معها بحسب ما تريد.. والأكثر من هذا أنها تستمتع بتلك التوددات التي تستهجنها الخطية وتعتبرها دليلاً على إظهار الرجل لتفوقه، وتستمتع كذلك بالاهتمام والتسلية اللذين يوفرهما لها معجبوها من الجنس الآخر.

همست كلير لجنيفر:

ـ أظنها تنفوه بالكثير من السخافات.. لا أريد أن أكون مساوية للرجل إذا كان هذا يعني أن أعمل دائماً وأخدم نفسي بنفسي في المقاهي.

أكدت لها جنيفر:

ـ لن تضطري إلى هذا ما دام للرجل عينان في وجهه.

همست جارة لهما: هس!

هزت كلير كتفيها الأنيقتين ونظرت خلسة إلى المتكلمة.. إنها قبيحة، جادة، متوسطة العمر، وشكلها لا يوحي بأن أحداً قد يخرج عن

www.liilas.com

طوره ويقدم أي نوع من الخدمات لها..

من ناحية أخرى، أصغت جنيفر إلى فرانسيس پالمر بتعاطف وتأييد.. فهي لم تكن جميلة على عكس شقيقتها، وتهتم كثيراً بالآليات وهذا أمر نادر عند النساء. لو كانت صبياً لاختارت أن تعمل في مجال الهندسة، أو أن تصبح ميكانيكية محركات.. ومع أن النساء بدأن يدخلن هذه المجالات، إلا أنها حالات نادرة.. وما كانت أمها لتسمح لها باختيار مثل هذه المهنة. تعلمت الطباعة على الآلة الكاتبة وتمكنت من التوفيق ما بين وظيفتها وميولها الذاتية بأن عملت في مرآب كبير لتصليح السيارات، فكانت تأتي إلى المشغل في أوقات فراغها وتساعد عامل الوقود. وسرعان ما أصبح لينش سمونز ابن صاحب المرآب صديقاً جيداً لها واعتمد عليها لمساعدته في تصليحات مستعجلة، وقد أذهله اهتمامها بموزع الوقود «الكاربيراتور» ومولّد الشرارات (الديسبراتور) وكل ما تبقى من أجهزة السيارة المعقدة.. فكان أن أصر على تعليمها القيادة، واعتبر نجاحها في الامتحان تقديراً شخصياً لمهاراته.

ترملت ليزا غرايون منذ سنوات. وفي منزلها الذي لا رجل فيه، كانت جنيفر تقوم بكل الأعمال المتفرقة الصعبة.. فشقيقتها كلير عاجزة كلياً عن مواجهة قابس كهرباء محترق أو أنبوب تصريف مياه مسدود، ولم تكن الأم ليزا أفضل حالاً.

لقد انتظر والداها خمس سنوات بعد ولادة كلير لإنجاب مولودهما الثاني، وأراداه أن يكون صبياً، فخاب أملهما. ولطالما تساءلت ما إذا كانت أذواقها الصبيانية نتيجة لانشغال بالهما قبل ولادتها بمولود ذكر.. كانا فخورين بجمال كلير التي أدركت مزاياه منذ طفولتها.. وكان على جنيفر أن تعوض عن هذا النقص بأن تجعل نفسها مفيدة، وهذا ما كانته دون أدنى شك. ولم تغر قط من أختها أو من نجاحها مع الجنس الآخر، بل كانت فخورة بجمالها غير العادي ورشاقتها وسحرها.. ورضيت تماماً بواقع أن أي ذكر يقترب من جوارهما لا ينظر أبداً إلى الأخت الصغرى..



ورغم قناعتها هذه فقد أصابت دعوة فرانسيس پالمر وتراً حساساً فيها.. فهي مسلوبة من حقها لأنها فتاة، وبما أنها لا تتلقى التقدير الذي تتلقاه كلير، فمن المريح جداً أن يقال لها إن الكثير من الاهتمام ما هو إلا دليل على عبودية المرأة ويجب النظر إليه بازدراء.

تغضن جبين جنيفر عندما بدأت الخطيبة في خوض مسألة التكافؤ الجنسي.. فهي لطالما اشمئزت من سماع مثل هذه المواضيع في المدرسة وضحكات الفتيات المراهقات المهووسات بالفتيان.. لم تكن من مؤيدي الحرية المطلقة في هذا العصر.. وبدا أن الآنسة پالمر تعتبر هذا فضيلة عافها الزمن وأن الزواج بمعناه المعروف هو مجرد قيد.. للزوجة، ولا مجال لاحتماله إلا إذا تشارك الزوجان في الواجبات بالتساوي، وكان لكل منهما الحرية الكاملة في اتباع عملهما الخاص..

هزت كلير كتفيها، ونظرت بازدراء إلى المرأة المحاضرة.. كانت مقتنعة كأمها تماماً بأن جاذبيتها يمكن أن تجلب لها زوجاً ممتازاً. وبالرغم من كل ادعاءات الآنسة پالمر، فالزواج والبيت المريح والدخل المستقر هو هدفها. أما بالنسبة لجنيفر، فهي لا ترى أن لديها إمكانية لتحقيق ذلك النوع من الزواج الذي تصبو أختها إليه. ومن ناحية أخرى، لم تكن ترغب في أن تصبح العانس الجافة التي تمثلها المحاضرة بكل وضوح..

انفض الاجتماع وتلقى ردات فعل مختلفة من الحاضرات، ورددت بعض النساء المساوىء السوداء التي يسببها الرجال.

خرجت جنيفر وكلير إلى الشارع.. كانت أمسية يوم لطيفة من شهر آب، وكانت الأضواء تنتشر في شوارع المدينة التي بدأت تعج بسيارات طالبي المرح بعد العمل، انتظرت الفتاتان الباص في أقرب موقف ليقلهما عبر النهر إلى الأراضي المرتفعة فوق البلدة حيث تعيشان.. وقالت كلير:

- لست أدري لماذا أهدرنا وقتنا في الاستماع إلى ذلك الكلام الهراء.. أنا راضية تماماً بما عندي ولا أرغب أبداً في منافسة الرجال.. من واجبهم كسب لقمة العيش ومن واجبي العناية بالبيت.

نظرت جنيفر إلى جانب وجه شقيقتها الرائع التكوين. كان شعرها المتجعد يلمع كالذهب تحت ضوء المصباح ويلتف بفتنة حول وجهها البيضاوي وعنقها الأبيض الطويل. وبدا جسدها الممشوق الطويل بارزاً بوضوح في بنطلونها الأزرق وبلوزتها التي تظهر خصرها النحيل.. كانت تعمل في محل أزياء وتحل مكان عارضة حين تدعو الحاجة، ولقد رفضت الكثير من عروض العمل المغرية.. ولكونها كسولة بطبيعتها، كانت تمرر الوقت إلى أن يظهر الشخص المناسب للزواج بها.

في هذه الأثناء، كانت عيناها الزرقاوان الساحرتان تنظران إلى السيارات المارة.. وقالت جنيفر ضاحكة:

ـ تقول الآنسة بالمر إنك تفكرين بذهنية «الحريم» المستعبدة.

لم تكن جنيفر طويلة ونحيلة مثل أختها.. وغالباً ما يُظن أنها فتى، وهذا ما يدعمه لباسها المعتاد من بنطلون جينز وتي شيرت. كان شعرها المتموج بنياً فاتحاً يصل إلى كتفيها ويظهر على وجهها حيوية وتألق تفتقدهما الفتاة الأكبر سناً.. عيناها رماديتان، ومرتفعتان قليلاً عند الطرفين. وتابعت:

ـ لسنا جميعاً بجمالك كلير.. ستتزوجين على الأرجح لوروداً.. لكن المسكينات مثلي ليس لديهن سوى حصافتهن يعتمدن عليها لكسب عيشهن.

نظرت كلير إلى أختها الصغرى بقلق:

ـ أرجو أن لا تكون هذه المرأة قد وضعت أفكاراً خاطئة في رأسك.

ـ أتعنين في أن أصبح متساهلة مع الفتيان؟

ـ أنت لست هكذا، أليس كذلك؟

ـ لا تخافي.. لم ألتق بعد بالفتى الذي لا مثيل له.

ألمحت كلير:

ـ هناك ذلك الفتى حيث تعملين.

ضحكت جنيفر مرحاً:



ـ أتعنين ليتش؟ أوه، إنه كأخ لي.. مجرد صديق طيب وغالباً ما ينسى أنني فتاة. ويظنك أروع مخلوق خلقه الله.

وقطبت مكتئبة تتساءل عما إذا كان سبب طيبة ليتش نحوها هو رؤيته لأختها في بعض المناسبات.. مع أنه لا شك يعرف أن لا فرصة له، وابتسمت كلير برضى:

ـ أخشى أن أكون أرفع مقاماً من ميكانيكي في كاراج.

ـ أجل.. إنه يعرف هذا.. ألست معجبة بأحد معين كلير؟ لقد رفضت جوس المسكين وكان مخلصاً جداً لك.

ـ لكن دون مستقبل.

ـ ألم تحبيه؟

هزت كلير مرة أخرى كتفيها.

ـ أوه.. الحب.. لن ينفع دون المال الضروري.. لكنني منصفة جنيفر.. فأنا لا أبيع بضاعة معطوبة.

عرفت جنيفر ما تعنيه شقيقتها، ومع أنها تستهجن وجهة نظرها المرتزقة نحو الزواج، إلا أنها مسرورة لكونها تضع الحدود لعلاقاتها مسبقاً.. فالعالم أصبح حقاً مقلوباً رأساً على عقب.. بينما كان فيما مضى سائراً على منوال واحد، وتبقى فيه الفتاة الطيبة طاهرة عفيفة إلى أن تتزوج.. أما الآن فهي تشجع على الانحراف على يد أشخاص مثل فرانسيس بالمر، وباسم التحرر.

توقف الباص إلى جانب الرصيف فصعدتا إليه، وتابع رحلة التوقف والانطلاق عبر مدينة «نورويتش» إلى حيث سينزلهما في النهاية بين شبكة طرقات توصل إحداها إلى منزلهما.

انقلب مسار حديثهما في الباص إلى موضوع العطلة التي ستأخذانها معاً خلال بضعة أيام.. لدى والدتهما صديقة طفولة تقيم في «بيبل شاير»، ولقد عرضت أن تؤجرهم كوخاً صيفياً لثلاثة أسابيع.. لم تدرك جنيفر سبب قبول أمها للعرض، فالمنزل يقع في الريف على بعد ثمانية عشر ميلاً

عن «ادنبره» وهي تعلم جيداً أن المناظر الريفية لا تروق كثيراً لكلير، مع أن الصديقة ليديا هارغريفز عرضت كذلك تأجير سيارة لهن.. إلى أن تذكرت أن لليديا ابناً في سن الزواج.. تتمتع أسرة هارغريفز بالثراء، ويعمل أفرادها في صناعة جوخ التويد، عندما كان زوجها حياً، كانت ليزا تقوم باتصالات دائمة معهم.. لكن وفاته تركتهن مع دخل محدود مكّن العائلة الصغيرة من العيش في ارتياح إنما ليس في بحبوحة.. ولأنها أحست أنها غير قادرة على التماشي مع نمط حياة ليديا، فقد تركت صداقتهما تعتمد فقط على تبادل الرسائل.. وكان لجنيفر ذكرى ضبابية لزوجين طويلي القامة، شقراوين مع صبي صغير أحمر الشعر.. وكليف هارغريفز مرشح لأن يكون الزوج المناسب الذي تنتظره كلير، لذا قبلت ليزا بكل سرور عرض صديقتها، فقد كانت واثقة أنه سيعجب بجمال ابنتها وفتنتها.

لم يرق لجنيفر تصرف أمها المرتزق، لكن من الممكن جداً أن تقع شقيقتها في حب كليف فيكون الزواج مثالياً في هذه الحالة..

لم تجرب جنيفر الحب أبداً.. ومن الممكن ألا يكون مدمراً كما يصفه الشعراء.. ولا تستطيع كذلك أن تعتمد على مظهرها لإثارة حب أي رجل.. لديها أصحاب كثر من الفتيان، تشاركهم حب كرة القدم والسيارات السريعة والدراجات النارية، ولطالما قالوا لها إنها كان يجب أن تولد صبياً.

ترجلت الفتاتان من الباص وعبرتا الشارعين الفاصلين حتى منزلهما.. وجدتا سيارة متوقفة خارج البوابة، فقالت كلير برضى:

ـ هذه سيارة سايمون.. إنه ذاهب إلى اسكوتلندة أيضاً.. ولقد ألمحت له أنه قد يتمكن من إيصالنا.

هذا خبر جديد لجنيفر، فقد اعتقدت أنهن ذاهبات في القطار.

ـ أوليست طريقاً طويلة مزعجة؟

ـ رحلة قطار أكثر إزعاجاً.. وستكون أفضل مع سايمون.



وهذا ما ظنته جنيفر أيضاً، لكنها أحست بارتياب بسبب أخلاقيات هذا الترتيب.. فلو أخذهن سايمون، فسيكون هذا إرضاء لشقيقتها المفتون بها.. وهي تعرف أن كلير لا تنظر بجدية نحو علاقتها به.. وكأنها قرأت أفكار أختها، فقالت ضاحكة:

ـ لقد اعتبر الأمر منّة.. أنا أعتبر أنني أسدي لأي رجل خدمة بمجرد أن أسمح له أن يخدمني.

كان سايمون وايتمان يجلس بارتباك في غرفة الجلوس الصغيرة منتظراً وصولهما، وأضاء وجهه مع دخول كلير.. كانت بذلتها الزرقاء تزيد من زرقة عينيها، والنور الكهربائي المشع على شعرها الكثيف المجعد يحوله إلى لون الذهب السائل.. بدت جنيفر من خلفها مجرد ظل.. نجمة صغيرة اختفى بريقها أمام نور القمر..

دبت الحيوية في أوصال سايمون مع وصول فاتنته وسألها عن الاجتماع.. فقالت متشدقة:

ـ مجرد كلام سخيف.. ولا أستطيع فهم سبب ذهابنا.

تمتمت جنيفر:

ـ علينا أن نحاول احتضان الحركة.. لقد قيل لنا كيف نصبح نساء عصريات متقدمات.

نظر سايمون برعب إلى كلير التي ضحكت:

ـ لا تقلق، فهي لم تؤثر عليّ أبداً.

تطرقت ليزا إلى موضوع الرحلة شمالاً، فسارع سايمون للشرح:

ـ أخشى ألا يكون لدي سوى مقعدين شاغرين، فأنا مسافر مع صديق سأتجه معه إلى «الهايلاندر». وأهلاً بكن إلى المقعدين طبعاً.. لكن ماذا عن جنيفر؟

قالت له الأم:

ـ أوه.. لن تمانع في الذهاب بالقطار.

أحست جنيفر بلحظات تمرد.. لقد حكمت عليها أمها وأختها برحلة

طويلة وحيدة دون وخز من ضمير، وهما بهذا تستغلان جمال كلير وجاذبيتها لهذا الرجل الأحمق. مع ذلك فهو الوحيد الذي يبدو معتذراً.. وشرح قائلاً إنها ليست سيارة كبيرة، وسيكون المكان ضيقاً لثلاثة في رحلة طويلة كهذه.. وقاطعته:

ـ لا بأس في هذا، أنا لا أمانع أبداً في السفر بالقطار.

لكنها قطعاً تمانع، فهي ستستمتع أكثر برحلة السيارة.

رددت سخطها أمام لينش في اليوم التالي، فبادر إلى تقديم اقتراح معاكس:

ـ إذا كنت حقاً تريدين السفر بالسيارة ولا تمانعين في التهوض عند الرابعة صباحاً، أستطيع أن أصطحبك معي. عليّ إيصال مقطورة إلى «پيبل» وهي قرية من المكان الذي ستقصدينه، لكنها ستكون رحلة بطيئة ونحن نقطر ذلك الشيء.

أشار إلى مقطورة صغيرة في زاوية الكاراج:

ـ إنه زبون مميز، وسيدفع المصاريف لي.. وما من مانع في أن تأتي معي في السيارة..

ابتهجت جنيفر:

ـ أوه لينش، سيكون هذا رائعاً.. ويمكنني أن آخذ دوراً في القيادة لأريحك بين وقت وآخر.

ـ حسن إذن.. سنلتقي عند الفجر.. أريد السفر باكراً لتجنب زحمة السير، ولدينا مسافة طويلة نقطعها.

هكذا نهضت جنيفر فجراً، وسارت حاملة حقيبة صغيرة عبر الشوارع الفارغة من السيارات والباصات في مثل هذه الساعة. وصلت إلى الكاراج فوجدت مفاجأة بانتظارها.

كانت المفاجأة سيداً طويلاً، قوي البنية، شعره كثيف بني قاتم، فوق عينين رماديتين ثاقبتين وحاجبين مستقيمين أسودين، ولم يبدُ أنه يميل إلى التعاون.



كشف النور الخفيف المنبعث من المرآب عن المقطورة المتوقفة إلى جانب الطريق موصولة بسيارة لم تكن سيارة لينش القديمة.. بل سيارة لماعة حديثة، وكان أحد العمال يملأها بالوقود.

تقدم لينش نحوها بخجل وهمس:

ـ أنا آسف جداً جنيفر.. أخشى أن تكون رحلتنا ملغاة.. لقد ظهر صاحب المقطورة.. وسيقودها بنفسه.

نظرت إلى ساعتها: يا إلهي!

أمامها وقت طويل لتعود إلى المنزل وتقوم بتغيير ملابسها، كما عليها أن تعيد توضيب حقيبتها لتتناسب مع رحلة القطار.. أحست بخيبة أمل شديدة فنظرت بلهفة إلى جوانب الفوكسهول اللماعة، وردت على لينش هامسة:

ـ أعتقد أنه لن يفكر أبداً بأخذي؟

ـ جين.. أنت لا تعرفينه.. ولا يمكنك..

وتقدم الرجل نحوهما.. وسأل:

ـ عمَ تتحادثان همساً؟ هل هو شيء له علاقة بي؟

قالت جنيفر متلعثمة:

ـ أنا.. كنت سأذهب إلى اسكتلندة مع السيد سيمونز.. لكن الآن وقد جئت أنت..

ـ إذن كان يسعى إلى توصيلك على حسابي؟

احمرت ساخطة:

ـ بالطبع لا.. أراد لينش من يرافقه ويريحه في القيادة..

قطب الغريب بسرعة، فصمتت.

ـ إذن أنا محظوظ لاستلام بضاعتي قبل أن يصيبها مكروه.

أجفل لينش وقال متصلباً:

ـ أؤكد لك سيدي أنني لا أستخدم أحداً غير كفوء.

ـ يتوقف هذا على ما تعتبره كفاءة.. فهذا.. الشخص لا يبدو في سن

تسمح له بحيازة رخصة قيادة.. والآن، أرجو منك أن تسوي لي حساب الوقود.. وسأنطلق في طريقي.

أدار ظهره إلى جنيفر وهو يخرج محفظة نقود من جيبه، فلذعها عدم اكتراثه وأحست بالغضب، فصاحت بشراسة:

- أعتقد أنك لئيم.. معك سيارة فارغة، ومقطورة، وبإمكانك نقل.. فريق كرة قدم إذا رغبت.. ولو أخذتني معك لن تلاحظ وجودي وأنا على استعداد لأن أدفع لك حصتي من الوقود.

نظر لينش إليها مذعوراً، وقال شاهقاً:

- لا يمكنك.. لا يجوز!

استدار الغريب ونظر إليها متسلياً، ثم قال:

- أنت إذن لست من أولئك المتطفلين الذين يتوقعون السفر دون مقابل، وهذا في رأيي وقاحة.. لكن هل لديك فكرة عن مصروف الوقود لأربعمائة ميل؟ قد تكون حصتك من المبلغ كبيرة. وهكذا يصبح السفر في القطار أقل كلفة.. خاصة وأن حجمك الصغير قد يمكنك من السفر بنصف تعرفة.

رفعت جنيفر رأسها إلى الوراء بكبرياء، وقالت له:

- ستجد المساومة صعبة لو اعتقدت أنني سأدفع نصف التكاليف.. لكنك اسكتلندي على أي حال.. أليس كذلك؟

- أوه.. أجل وأعرف تماماً أن مواطنيي لهم سمعة البخل بالنسبة للإنكليز.. وهذا أمر غير مبرر أبداً.

- ها أنت تثبت تلك السمعة.. فأنت مسافر على أي حال، ولن يثقل وجودي على سيارتك أو يزيد في مصروف وقودها.

- لكنك أنت من عرض دفع حصة.. وفهمت هذا على أنه مناصفة.

- حسن جداً، أقبل بهذا.

تدخل لينش فور سماعه كلماتها هذه، ووجهه الصادق مجعد بالاهتمام:



- الآن اسمع.. هذه سرقة.. جين.. هذا جنون.

- أريد الوصول إلى اسكتلندة.. والأمر عاجل.

قال الغريب:

- هذا ما يبدو..

لمحت جنيفر لمعة خبث في عينيه.. وخطر ببالها أنه يحاول مزاحها، ثم أكمل:

- أعترف أنني كنت طماعاً قليلاً.

سألت آملة:

- إذن ما الذي تعتبره أجرة منصفة؟

بدا كأنه يفكر، فتدخل لينش مجدداً وأمسك بذراعها: لن أسمح لك بالذهاب معه.

نفضت يده عنها بنفاد صبر، فسأل الغريب:

- وما هو اعتراضك سيمونز؟ هل لديك شيء ضدي؟

بدا الارتباك على لينش:

- لا شيء سيدي.. لكن.. حسناً.. أترى..

- أنا لا أرى شيئاً، ثم ما دخلك أنت؟

استدار إلى جنيفر وأكمل:

- إنها رحلة طويلة.. وأستطيع فهم سبب رغبة سيمونز في اصطحاب رفيق معه. وربما أستطيع الاستفادة من رفيق كذلك.. ولن آخذ منك شيئاً، يا فتى.. إذا جعلت نفسك مفيداً..

صمت بعد أن ضحكت جنيفر، وسأل:

- ما المضحك؟

- ظنك أنني فتى.. بالطبع أنا مستعدة لأن أفعل ما تريد، لكنني لست صبياً.. أنا فتاة.

مرر الغريب عينين متفحصتين على الجسد الصغير وابتسم.. ثم قال متذمراً:

ـ أنتم الشبان ترتدون أشياء مماثلة! يجب أن تتسامحي مع غلطتي.

قالت باندفاع:

ـ أسامحك على أي شيء إن أخذتني إلى اسكتلندة.

التوت شفتاه مرحاً:

ـ وهل تفعلين هذا حقاً؟

ـ وهل ستسحب عرضك لمجرد أنني فتاة؟

تدخل لينش مجدداً:

ـ لكن هذا هو سبب استحالة ذهابك معه جين.. ألا ترين.. هذا غير مناسب..

سأل الغريب: أهو صديقك؟

ـ ليس بالمعنى الذي تقصده.

ضحك:

ـ وهل هناك درجات في علاقات الصداقة؟

ـ طبعاً.. هناك الـ.. الصداقة العاطفية، والصحبة الجيدة.. وصداقتنا من النوع الأخير.

ـ إذن، إذا لم يكن هذا الشاب يملك حق الاعتراض على تحركاتك فالعرض قائم.

نابع لينش احتجاجه:

ـ جين.. إنه غريب تماماً..!

ـ كيف تقول هذا يا رجل وأنا أفاوضك منذ أسابيع حول المقطورة؟

ـ كان ذلك عملاً تجارياً.

ـ وهذا عمل أيضاً.. تحتاج الفتاة إلى توصيلة إلى اسكتلندة، وأنا أحتاج إلى رفيق للطريق.. أقل ما أستطيعه هو أن آخذها معي بما أنني أفسدت لكما ترتيبكما بتغيير خططي.

نظرت جنيفر بتساؤل إلى وجهه الأسمر النحيل وعينيه الرماديتين المحيرتين.. بدا لها الآن متلهفاً لأخذها معه.. وكانت تعرف أنها



تخاطر.. فالفتيات الحكيمات لا يقبلن بالركوب مع غريب.. لكنها تريد بائسة أن تذهب معه في هذه السيارة..

انحنى الغريب لها بسخرية قائلاً:

ـ أرجو أن يكون تقييمك مرضياً.. اسمي تشايس ماك كونال.. وأنا آسف لأنني لن أستطيع أن أعطيك شهادة حسن سلوك، لكن يعرف سيمونز مدى ثباتي المالي.. فهل هو مستعد لتأكيد وضمان استقامتك؟ المسألة لها حدين.. كما تعلمين.

قالت بغضب:

ـ بالطبع أنا محترمة ومستقيمة!

ـ يلتقي المرء بالكثير من المتشردين على الطريق هذه الأيام.

التمعت عينا جنيفر وهي تنظر إليه ساخطة، أيلمح إلى أنها متشردة؟ لكنها لم تقل شيئاً خوفاً من أن تثير عدائيته. وسعى لينش إلى التدخل مرة أخرى:

ـ لن تقبل السيدة غرايون بهذا.

ردت جنيفر بمرارة:

ـ أوه.. لن تمانع أمي.. كل ما تهتم به هو إيصالي إلى اسكتلندة بأرخص ما يمكن، فهي لم تستطع أن تشملني بخططها.

سأل تشايس:

ـ غرايون؟ هل هذا هو اسمك؟

ـ أجل.. جنيفر غرايون، مع أن لينش يناديني جين.

ـ غرايون.. وأنت ذاهبة إلى اسكتلندة.. هل أنت واحدة من الأسرة التي أجرت لها عمتي السيدة هارغريفز «روزكونج»؟

ردت بالإيجاب وهي مندهشة.. فأكمل بلهفة:

ـ يا لها من مصادفة غريبة! إذن أنت الابنة.. لكن قيل لي إنها جـ.. أكبر منك سناً.

فهمت جنيفر الكلمة التي جهد أن يخفيها.. إذن، لقد وصلت شهرة

جمال كلير إلى سهول اسكتلندة مما يبشر بالخير بالنسبة لطموحها نحو كليف هارغريفز.

قالت له:

ـ أختي هي الجميلة..

نظرت إلى تشايس ماك كونال باهتمام جديد، تتساءل أين موقعه من الصورة.. لطالما كانت ليديا فخورة بابنها، لكنها لم تذكر يوماً ابن أخ لها.. لعلها فسرت الأمور خطأ، وهذا هو الرجل الذي ستقدم كلير إليه؟ ثم تذكرت أن ابن أسرة هارغريفز يدعى كليف وشعره أحمر، واسم هذا الرجل لا يشبه اسم هارغريفز وهو أسهل لفظاً.. لا شك أن لهذا الرجل نفوذاً كبيراً وهو من النوع الذي تسميه أمها «القطة». اتجهت عيناها إلى يده اليسرى فلم تر خاتماً لكن أغلبية الرجال المتزوجين لا يضعون خاتماً.. ولو أنه غير مرتبط فسيكون ضحية أخرى يُقدم على مذبح جمال كلير، وأحست بلحظة حسد لأختها.

كان تشايس يراقب تعابير وجهها المتلاحقة ببعض من التسلية، ولاحظ الحزن الذي غمرها فقال:

ـ ليس الجمال كل شيء.. إنه عادة أمر سطحي.

ـ ربما.. لكن معظم الناس لا ينظرون إلى الداخل. ومما يثبط الهمة أن يبقى المرء دائماً في الظل.

ـ وهل أنت هكذا؟ لكن مع حيويتك أتصور أنك سرعان ما تبرزين من بين تلك الظلال.

ـ لا فكرة لدي عن هذا، وما هي حيويتي؟

ـ نوع من الجمال المفعم بالحياة.

ـ أوه..

أدركت أن لينش يراقبهما باستهجان مذهول، فأضافت بسرعة:

ـ لا داع للقلق لينش فالسيد.. هذا صديق قديم للعائلة.

ـ صديقٌ لم نلتق به من قبل.



كذبت جنيفر لتطمئنه.

ـ أوه.. لكنني سمعت كثيراً عنه.

والتفتت إلى تشايس لترى بسمة سخرية على وجهه، فهو يعرف أنها لم تسمع به من قبل.. وقالت بسرعة:

ـ ألم تكن مستعجلاً للانطلاق؟

ـ بلى.. أريد أن أخرج من هذه البلدة قبل ازدحام السير. لذا إن كنت جاهزة.

والتقط لها حقيبتها.. فسأل لينش:

ـ أذاهبة حقاً؟

ـ طبعاً.. لا تقلق.. كل شيء على ما يرام الآن وقد اكتشفت أن السيد.. السيد..

ـ تشايس.

ـ تشايس قريب للسيدة هارغريفز.. إلى اللقاء لينش، سأرسل لك بطاقة بريدية.

ـ إلى اللقاء جين.. حافظي على نفسك.

واستدار نحو المرآب مع رنين الهاتف، ولحقت جنيفر بتشايس إلى السيارة.

نظرت إلى ظهر تشايس العريض وهو يضع الحقيبة في المقعد الخلفي وتنهدت.. لا داع لأن يخاف تشايس عليها، إنها ليس من النوع الذي يغوي رجلاً ليتحرش بها.. إنها ليست مثل كلير التي لا يستطيع أي رجل مقاومتها.

تذكرت وهي تأخذ مكانها في السيارة أنه ظنها صبياً في نظرته الأولى لها وأشار إلى أنها قد تفيده، وافترضت أنها يجب أن تخدمه، تشتري له السكائر، تمسح زجاج السيارة.. وهي ما تزال قادرة على القيام بأشياء كهذه حتى ولو أنها فتاة، لكنه قد يتردد الآن في طلب شيء منها.. أدار محرك السيارة، ونظرت إلى ركبتيها الملتفتين بالبنطلون.. لا لن يتردد..

فهو ينظر إليها كمخلوق من جنس موحّد كما تظهرها ثيابها.. ولو أنها مثل كلير وترتدي ثيابها، فلا مجال لطلب أن تمسح زجاج السيارة.. مع أن السيارة جميلة وتثير فيها حماساً أكبر من الذي يثيره مالكها.. لكن من الممكن ألا يقبل بأخذ كلير معه، لظنه أنها ستلهيه جداً عن الطريق.

نظرت إلى جانب وجهه البارز وإلى جسمه الرشيق المليء بالعضلات.. كان بهي الطلعة وصوته رقيق الرنة وساحر، لا بد أن لديه معجبات كثر وعلى الأرجح أنه لا ينظر إليها أكثر من كونها شخص صغير غريب، إذ بدا واضحاً عدم اكتراثه لوجودها إلى جانبه.

هدرت السيارة الكبيرة عبر الشوارع الفارغة تجر المقطورة بسهولة.. بينما أحست جنيفر لأول مرة بالغيرة من أنوثة أختها وسحرها.. وتمنت لو أن لها عُشر فتنتها لتتمكن من جذب قليل من اهتمام رفيقها الغامض.

* * *



## ٢ ـ هل جربت الحب؟

بزغ نور الشمس في الوقت الذي اتجه فيه تشايس وجنيفر إلى خارج المدينة.. كانت الشوارع لا تزال فارغة، وبدت المنازل غافلة عن مرورهما بنوافذها المسدلة الستائر.

كان تشايس يقود بصمت يبدو وكأن أفكاره بعيدة جداً.. ونظرت جنيفر جلسة إليه، لقد حصلت على ما تريد، لكنه شخصية غريبة عنها تماماً وتساءلت بلهفة عن نوعية الرفقة التي ستكون بينهما خلال الساعات التي يجب أن يقضياها معاً.. وأملت ألا يكون قد ندم على السماح لها بمرافقته.

سألته أخيراً غير قادرة على تحمل صمته:

ـ ما الذي جعلك تشتري مقطورة في «نورفولك»؟ ألا يصنعون منها في اسكتلندة؟

رد باختصار، وفخر:

ـ بالطبع، نصنع أي شيء في اسكتلندة. لكن سيمونز نشر إعلاناً عن موديل يقرب إلى الجديد بسعر معقول. وكنت حينها موجوداً هنا، فقصدته وتفحصتها عن كثب ووجدت أنها ما أريده تماماً.. فأخذتها.. وهل تتوقعين من اسكتلندي أن يفلت صفقة رابحة من يده؟

ـ لا أحد يرغب في إفلات صفقة رابحة من يده.. وأنت كنت كريماً معي.

حذرها:



فراشة المحبة
www.liilas.com

ـ لا تحكمي بسرعة.. قد أكون متطلباً.

ـ في ماذا؟

ـ انتظري لترى.

فكرت قليلاً بكلامه.. ثم قالت متفاخرة:

ـ يمكنني القيام بإصلاحات طارئة.. مع أن هذه السيارة في حالة ممتازة.

ـ إنها هكذا حقاً.. لكنني سأجد لك شيئاً تقومين به.. لا تخافي.. ستعملين بما يفي بأجرة سفرك.

رأت الخبث في عينيه.. وقدرت أنه يحاول المزاح معها، فقالت بصدق:

ـ سأكون مسرورة جداً بفعل ما تريد.

تساءلت ما إذا كانت تجرؤ على سؤاله عن نوعية الخدمات المتوقعة منها.. لقد قال لها أن تنتظر لترى، لذا لا شك أنها ستضيع وقتها في السؤال.. وعاد مجدداً إلى الصمت، وأخذ النور يقوى ليزيد من شحوب أنوار الشارع.. بعد ميل أو يزيد، حاولت الحديث معه مجدداً.

ـ لماذا تريد المقطورة؟

ـ للسياحة في البلاد والخارج.

ـ وهل تسافر كثيراً؟

ـ آخذ عطلات مثل غيري.. وكما تفعل السلحفاة.. أجد من المناسب أكثر أن أحمل بيتي معي.

ـ لا شك أن في هذا مرحاً كبيراً.. أن تكون حراً في الذهاب أينما تريد.. إنها طريقة ممتعة جداً لقضاء العطلات.

لكن هذا ما لن تحبذه كلير فهي تفضل الإقامة في الفنادق الفخمة.

قال تشايس بصراحة:

ـ إن كان هذا تلميحاً.. فأنا لست على استعداد لأن آخذك في جولة.

ـ وأنا لم أحلم أبداً بأمر كهذا!



ـ هكذا إذن.. تبدين شابة مغامرة.. ولست أدري كيف تمكنت من إقناعي بأخذك معي.. لكن، ها أنت هنا.

ـ هذا أمر مختلف تماماً.. كنت في ورطة، وأنت أنقذتني وساعدتني على الخروج منها.

ـ يبدو هذا كعمل فارس.. لكن لا تخدعي نفسك، فأنا لست بمثل هذه الشهامة.. وأعتقد أن كلام سيمونز الأحمق هو الذي قرر عني، يبدو أنه ظن أنني أريد لعب دور الذئب مع ذات القبعة الحمراء، وهذا ما أزعجني.

ضحكت جنيفر:

ـ مسكين لينش.. نيته طيبة.

ـ أوه.. أجل. لا شك في هذا.. هل تعرفين لايدي جيداً؟

ـ لايدي؟

ـ العمة ليديا، أناديها لايدي، ولا أظن الاسم يعجبها.. وذلك الابن ذو الياقة العالية لا يعجبني أيضاً، وأنا أنادي أمه هكذا لأزعجه!

ـ أنت تحب المزاح.. أليس كذلك؟

ـ لا يضر هذا بشيء.

ـ قد يكون المزاح غير لطيف أحياناً.

ـ الأشخاص أمثال كليف مؤهلون للمزاح معهم. إنهم متفاخرون.. هل التقيت به؟

ـ عندما كان صبياً صغيراً.. أمي والسيدة هارغريفز صديقتان قديمتان.. وتتراسلان دائماً، لكنها لم تأت لزيارتنا منذ مدة طويلة.. ونحن لم نزر اسكتلندة من قبل.. وأنا أتطلع شوقاً لهذه الزيارة.

ـ يجب أن تجدي فرصة للذهاب إلى جبال «الهايلاندر».. إنها اسكتلندة الأصلية.

ـ وهل أنت من «الهايلاندر»؟

ـ أجل.. مع أنني أقيم في انكلترا منذ سنوات طويلة، لكن موت أحد

الأنساب اضطرني إلى المجيء شمالاً.

ـ وهل هذه مناسبة عزاء؟

ـ لا.. بل تهنئة.

كان يتكلم باختصار فلم تعد ترغب في طرح المزيد من الأسئلة عليه.. لكنها استنتجت أنه مستفيد من هذه الوفاة.. وإن كان رجل أملاك، فستعتبره ليزا مناسباً أكثر من ابن عمته كليف الذي يعمل في حقل التجارة.

سألت:

ـ إلى أين تتجه الآن؟

رد بعفوية:

ـ إلى اسكتلندة.

ـ أعرف هذا.. لكن أولاً.

ـ أوه.. إلى كينغزلاين ثم نعبر «الفينز» أو منطقة المستنقعات.

وصلا أخيراً إلى «الفينز» بعد أن مرا في ضواحي «كينغزلاين».. كانت الشمس ترتفع وسط سحب برنقالية الأطراف وتنشر أشعتها الذهبية فوق الأرض السوداء، والذرة الناضجة.

تنهدت جنيفر:

ـ المنظر جميل.

ـ ولحسن حظنا أن الصباح رائع.. اصغي إلى هذا.

كان قد أبطأ سيره ليستدير، وسمعت تغريد طائر أسود كبير في دغلة شائكة قريبة من الطريق.

ـ إنه طائر «الميرل» أو الشحرور الأسود. هل تغنين؟

ـ ليس هكذا.

ـ وما من صوت بشري يمكنه تقليده.. هل أنت جائعة؟

أجابت بأدب: قليلاً.

قال معترفاً:



ـ لكنني جائع جداً.. ولم تفتح المطاعم أبوابها حتى الآن ما عدا تلك المخصصة لسائقي الشاحنات.. ونحن نقترب من أحدها.. فهل تمانعين؟

ـ ولمَ أمانع؟

ضحك:

ـ لماذا حقاً؟ الطعام جيد لكنها ليست من نوع الأماكن التي اصطحب إليها «فتياتي» عادة.

ردت بحزن:

ـ ولا أعتقد أنني هذا النوع من الفتيات اللواتي تصطحبهن معك عادة.

ـ ربما لا.. لكنك أصيلة.. ولم ألتق بواحدة مثلك من قبل.

لم تكن واثقة ما إذا كان كلامه هذا نوعاً من المديح أو الذم. ووصلا إلى المقهى المفتوح فأوقف سيارته إلى جانب شاحنات ضخمة.

جلست جنيفر إلى طاولة خشبية، بينما انضم تشايس إلى صف من الرجال لطلب الطعام من منصة البيع.. ورجع بعد دقائق حاملاً صينية عليها طبق لحم وبيض، وعدة شرحات خبز سميكة، وكوبين كبيرين من الشاي.. وانكب كلاهما بشهية على هذه الوجبة البيتية. كان تشايس يجلس قبالتها، ولأول مرة تمكنت من رؤيته جيداً.. له وجه أسمر بني حاد الملامح، وأنف مستقيم، عينان فاتحتان تحيط بهما رموش سوداء تحت حاجبين بارزين.. وفم جميل الشكل، ولو أنه قاس قليلاً فوق ذقن عنيدة. حملتها ملامح وجهه القوية على استخلاص أنه يحصل عادة على ما يريد، وتصورته كملك يسير عبر حقول الأسلاف، يرتدي التنورة الاسكتلندية الشهيرة، مع أنه في تلك اللحظات كان يرتدي بنطلوناً عادياً، وكنزة مرتفعة الياقة..

أحست فجأة أنها لا تريد أن يتم لقاء بين كلير وتشايس ماك كونال.. وسألت بحذر:

ـ لا أعتقد أنك ستقيم في مكان قريب منا؟

ـ سأبقى في ادنبره لبعض الوقت وهذه أقرب مدينة لكم، لدي بعض الأعمال يجب أن أتصل بمكتب «لايون» حول مسألة تقديم امتحان.

نظر إليها بخبث، متأكداً أنها لن تفهم ما يعني.. وسألت:

ـ أتعني أنك مضطر للمرور في امتحان ما؟

ـ يمكنك تسميته هكذا. هل تعرفين شيئاً عن شعارات النبل وتدقيق الأنساب؟

ـ هذا له صلة بالدروع والسلاح.. أليس كذلك؟

ـ أحسنت! إنها دراسة مثيرة للاهتمام. حتى أنها صنفت كعلم، ولطالما وجدتها مثيرة.

أحست بحيرة:

ـ أوه.. أعرف أنهم يضعون شعارات دروع المدينة على مصنوعات تذكارية يمكنك شراءها من المتجعات.

ـ لقد أصدرت كلية الدروع عندكم ومكتب «لايون» عندنا مراسيم محددة لمنع ادعاء من لا حق له في تلك الشعارات، وتثبيتها إن صح الادعاء.. فالدروع بشعاراتها متصلة عادة بإقطاعيات الأراضي، ويمتلكها كل فرد من طبقة النبلاء.. وبما أن حمل الشعارات يعتبر شرفاً فنحن فخورون جداً بها.

ـ نحن..؟ وهل تمتلك شعار نبل؟

ـ ليس في الوقت الحاضر.. لا يولد طفل في اسكتلندة مع الحق بالمطالبة بهذا الشعار بالرغم من كون والده من النبلاء، قبل تقديم امتحان والحصول على القبول من مكتب «اللورد لايون» وأنا، كوارث لعشيرة ماك كونال، يمكنني المطالبة بلقب نبل عشيرتي بعد أن أثبت لمكتب لايون صحة نسبي وأهليتي للوراثة.. وعندها يعاد إدخال حقوق النبل في سجلات «لايون» وأتمكن من حملها.

ـ وما هي.. أعني ماذا ستكون شعاراتك؟

ـ شارة الرتبة بين ثلاثة أسود واقفة.



ـ ثلاثة؟ شعار اسكتلندة أسد واحد؟

ـ رسمة الأسد عندي أصغر بكثير وهي بالأسود.

في هذا الوقت كانا قد أنهيا وجبتهما وأصبحا مستعدين لمتابعة رحلتهما. وكانت جنيفر تنظر إلى مرافقها باحترام جديد.. ومع أنها وجدت صعوبة في فهم معظم حديثه، إلا أنه أضاف هالة رومانسية لشخصيته وبدا وكأنه بين أهله وناسه في مقهى سائقي الشاحنات بالرغم من أسوده السود.

سألته بينما كانت تجلس إلى جانبه في السيارة:

ـ هل لكل عشائر اسكتلندة شعار نبل؟

ـ يحتفظ به رئيس كل قبيلة كدليل انتساب وشعار حرب.. معظم زعماء القبائل لوردات، مثل «دوق هاملتون» و «أيرل إلجين» والأخير من سلالة «بروس» وأضاف تاريخاً جديداً مثيراً للاهتمام إلى تاريخ سلاح «توغلاس».

لم تكن جنيفر متحمسة جداً لعلم شعارات النبل، إلا أنها حاولت الإصغاء بذكاء إلى حديثه في محاولة التأثير عليه، على أي حال إنها معه على أساس رفيقة سفر وتسليته جزء مما يتوجب عليها من تعرفة..

سألت:

ـ لكن ما نفع كل هذا في هذه الأيام؟

ـ ستحتفظ العائلات التي لها ألقاب بشعاراتها طالما هي موجودة.. ومن يدري كم يطول هذا.. وفي هذه الأثناء، تظهر مكاتب ومؤسسات تطالب بشعارات نبل. اسمعي، إذا كنت حقاً مهتمة، سأعيرك كتاباً يعطيك كل المواصفات الصحيحة.

ـ أوه حقاً؟

لم تكن في الواقع متحمسة جداً لقراءة تاريخ الشعارات، لكن ما جذبها إلى الموضوع كان شرح الرجل الرائع إلى جانبها.. وإن كان سيعيرها كتاباً، فهو سيراها مرة أخرى.. لكن.. وغاص قلبها.. سيقابل

كذلك.. كلير.. على أي حال، من المؤكد حصول هذا إن كان سيقيم في مكان قريب منهن.. وكلير، كما هي متأكدة، لن تهتم بالأسود الوائبة وبتاريخها.. هكذا قد تتمكن من استبقاء شعلة من اهتمام تشايس بها إن تظاهرت باهتمام مشدد بعلم شعارات النبل ورموزها.

وأكمل بمرح:

ـ لدي كتاب رائع مع الكثير من الرسومات الملوّنة.

تابع مستمتعاً بما يسرد، وأملت جنيفر أن لا تبدو له غبية كما تشعر.. حاولت أن تتذكر التسميات الصحيحة لأعلام اسكتلندة.. ماذا كانت؟ أسد واثب، وشيء ما حول سنبلة تواجه سنبلة.. سوف تحاول سؤال كلير عن هذا، وسترى كيف ستحدق دون فهم.

سألت فجأة:

ـ هل أنت متزوج؟

ـ لم أتزوج بعد.

ابتسم:

ـ هذا على ما أظن له أهمية أكبر من شعارات النبل التي أتحدث عنها.

أزعجها كلامه الماكر قليلاً وقالت بغيظ:

ـ كل ما كنت أفكر به، لو أن لك زوجة فهي لن يعجبها الوضع الحالي.

ـ وهل تظنين أنه وضع غير مألوف؟ لكنك لست سوى طفلة!

ـ أنا في التاسعة عشرة.. لكنني لست قلقة.. لأنني شخصياً أعتبر أن التقاليد متخلفة.

ـ حقاً؟ وهل هذا تحدٍ؟

ـ لا أعرف ما تعنيه بهذا، فأنا أؤمن بحرية التعبير وتحرير المرأة إذ لها كل الحق في فرص متكافئة مع الرجال.

كانت ترمي من وراء هذا إلى التأثير عليه بدرايتها وادعائها أنها ليست ساذجة بريئة كما تبدو له.



ـ بالمختصر.. أنت تؤيدين المجتمع المتحرر؟

ـ أوه.. قطعاً. يجب ألا تبقى الفتيات أسيرات قوانين سخيفة باقية من العهد القديم.

قطب وهو ينظر إلى الطريق المستقيمة أمامه.

ـ هذه تعاليم خطيرة لفتاة صغيرة.

ـ معظم جيلي يتقبلها.

ـ هذا ما أخشاه.. لكنه لا يحتفظ بقيمة المرأة كأم وزوجة.

ـ هذه وجهة نظر مجردة.. لقد سمعت محاضرة منذ أيام تقول إن الفتيات ولدن للقيام بأشياء أفضل من التقيد بمغسلة المطبخ ودور مدبرة منزل دون أجر.

سأل باستغراب:

ـ أهكذا تنظرين إلى الأعمال المنزلية؟ ألا تريدين أن تتزوجي؟

ـ أعتقد أنني سأفضل أن يكون لي مستقبل عملي.. وتستطيع المرأة أن تجد كفايتها دون أن تضطر للارتباط بالزواج.

ـ كفايتها؟ بأية طريقة؟

احمر وجهها، وقالت مترددة:

ـ في العلاقات.. وكل شيء.

لم تكن تتوقع أنها ستضطر للدفاع عن آرائها الفارغة أمام هذا الرجل.. لكنها لا زالت مصممة على تقديم نفسها كامرأة متحررة.

قال:

ـ ألم يخطر ببالك أن التقاليد توفر حماية للفتيات؟

ـ ومن يريد هذه الحماية؟

ـ أنت لا تريدينها كما هو ظاهر.. لكن مهما يكن، أنت أنثى ومعرضة دائماً لكل أنواع الأخطار.. وجهات نظرك هذه قد يسيء فهمها وغداً لا ضمير له ويرغب في انتهاك براءتك.

ردت بثقة:

ـ أوه.. أستطيع التعامل مع أي نوع من الرجال.. وأنا لست ساذجة لهذه الدرجة.

ـ حقاً؟

بدت لهجته غير مصدقة فأغضبها هذا.. وتلهى تشايس في مناورة لتخطي شاحنة عملاقة..

كان من الحكمة أن تتوقف جنيفر عن إثارة الموضوع، لكن تصرفه المتفوق دفعها للجرأة.. قالت بنعومة:

ـ طبعاً كونك رجل تفضل المظاهر القديمة الطراز. فهذا يرضي غرورك ويناسبك أكثر.

استرخى تشايس ونظر إليها جانبياً، ثم قال:

ـ ربما تكون أفكاري قديمة الطراز.. ولا أؤيد المرأة العصرية.. فهل لي أن أضجرك ببضعة أبيات شعر في وصف للآنسة العصرية:

آه يا امرأة ضائعة

تضع بنفسها سعرها.

تعرف أن الرجل لا يختار بل يدفع.

كم أنها جعلت الجنة رخيصة.

وجعلت من موهبتها الغالية نقيصة.

وجعلت من الوحوش رجالاً.

ومن الرجال قديسين.

أثرت الكلمات في جنيفر رغماً عنها، أو على الأصح الطريقة التي قال فيها تلك الكلمات.. لكنها تفضل الموت على أن تعترف.. وبدلاً من هذا قالت ساخرة:

ـ كلمات مثالية من العهود القديمة! أراهن على أن الشاعر ليس معاصراً.

ـ لا.. ليس معاصراً.. لكن الفكرة هي ذاتها.

ـ الفكرة كلام سخيف.. تجعل النساء مخلوقات ملائكية طالما هن



تفضلات.. نحن لا نريد أن نكون مخلوقات أدنى أو أرفع مقاماً من غيرنا بل نريد المساواة. مواهب غالية، حقاً! ومن يريد أن يتباهى بموهبة؟ نريد فقط أن نجد ما هو الأفضل لنا، دون أن يضعنا أحد فوق قاعدة تمثال ولا يوسيا في الوحل.

سألها فجأة:

ـ هل جربت الحب يوماً؟

لم تكن مستعدة لأن تعترف بأن هذا الشعور المتفوق قد فاتها الإحساس به، فقالت بخفة:

ـ ليس إلى درجة «إلى أن يغرقنا الموت».. لكنني أعتقد أن الحب مبالغ في تقديره.. لقد كان لي علاقة.

بدت السخرية ظاهرة أكثر وهو يسأل:

ـ حقاً؟ ومن هو المحظوظ؟

ـ لينش سيمونز.

ونظرت إليه بطرف عينها لترى كيف تلقى الخبر، فهي ذكرت أول اسم خطر ببالها وتعرف أنه لا يستطيع تكذيب كلامها.

ـ إذن هو أكثر من صديق طيب.. لقد قلت إن علاقتكما ليست عاطفية.

ـ لا.. ليست عاطفية.. كنت فقط أعبر عن رأيي.

ـ على أي حال، لو كان حبيبك فله حق عليك، وكان يجب أن آخذ اقتراحاته بعين الاعتبار أكثر.

ـ هذا يظهر تماماً مدى جهلك بالميول العصرية.. ليس للينش أي حق علي كائناً من يكون.. وهذه كل المسألة، أنا حرة.

ـ أتعنين أنه حر في أن يحبك ويتركك؟

ـ أنا لا أريده على الدوام، ولا هو يريدني.

ـ أخشى أن تكون هذه النظرة العصرية غير ممكنة الفهم لي.. لدي أفكاري القديمة الطراز.. ويراودني إحساس بأنك لا تعرفين عم

تتكلمين.

أغضبها هذا كثيراً وبدأت تقول:

ـ أوه.. ولكن لدي..

قاطعها ملوحاً بيده:

ـ لا أريد سماع المزيد.. أظن الوقت حان للغداء.

توقف أمام مقهى اسمه «الزعيم الصغير» وقال ببرود:

ـ أعتقد أنك مستعدة للغداء..

وذكرها هذا بأنه دفع عنها حصتها في الطعام.

ـ سأدفع عن نفسي طبعاً.. وأنا مدينة لك بالفطور. ولو أنني أركب معك مجاناً، فأنا لا أتوقع أن تطعمني كذلك.

ـ لم يكن هذا شيئاً.. ولن أمن عليك بوجبة طعام.

ـ لكن لو كنت رجلاً آخر لدفعت حصتي طبعاً.

إنها تدين بما يكفي لهذا المخلوق المتعجرف ولا ترغب في زيادة دينها له.. وسألت:

ـ وهل تسمح لي بأن أدعوك إلى الطعام؟

ـ بكل تأكيد لا.. لكنك ستدفعين نصيبك، مع أن نوع الفتيات اللواتي تقولين إنك منهن يحاولن جهدهن لاكتساب ما يستطعن.

ردت متصلبة:

ـ أنا مستقلة، ولست مستغلة.

كان «الزعيم الصغير» متطوراً أكثر من المقهى الأول.. وتمكنا من طلب وجبة حقيقية، وعند انتهائهما طلب تشايس فاتورتين منفصلتين وراقبها بخبث وهي تعد ما لديها من مال.

ثم سألت: والفطور؟

ـ ثلاثون بنساً فقط.

دفعت إليه بالنقود المعدنية:

ـ رخيص جداً.



ـ هكذا أرضيت غرورك.. لكن العشاء سيكون على حسابي فأنا أرغب في إيجاد مطعم أفضل من هذا، وليس من الإنصاف إجبارك على دفع إكراماً لذوقي المتكلف.

التقطت كلمة عشاء كل انتباهها.. كانت تظن أنهما سيصلان إلى نيويورك قبل حلول الليل.. ولم تقدّر أبداً أنه لا زال أمامهما مسافة طويلة.

سألت بإحباط: العشاء؟

ـ أجل. العشاء، لن نصل قبل الغد.

ـ وهل سنسافر طوال الليل؟

ـ ستكون هذه مبالغة في توقع الكثير من قوتي.

ـ لكنني أستطيع القيادة، لقد نجحت بالامتحان. أستطيع أن أقود بينما ترتاح أنت.

ـ شكراً لك، لكنني لن أرتاح كثيراً وأنت تقودين سيارتي الثمينة، ستمشي في «نورثومبريا» وننام ليلاً قبل أن نقطع الحدود.. ولحسن حظنا نحمل فندقنا معنا.. وللمقطورة سريران معلقان.

أحست جنيفر أنها تحمرّ خجلاً وكرهت نفسها لفضحها حرجها:

ـ أوه.. لكنني لا أظن..

قاطعها:

ـ وما هو وجه اعتراضك؟ تقولين لي إنك لست بحاجة إلى التقاليد.

كانت عيناه الرماديتان تسخران منها بوضوح.

ـ تتوقع عائلتي وصولي الليلة.. وسيقلقون إن لم أصل.

ـ بإمكانك الاتصال هاتفياً.

ـ لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا بعد، ولا أعرف إذا كان هناك هاتف في «روز كوتاج».

ـ إذن ستتصل بلايدي ونطلب منها أن تبلغهما بالأمر حين تصلان لأخذ المفاتيح.

أقرت على مضض:

ـ هذا ممكن.. لكن سيعتبر الجميع هذا أمراً شاذاً.. فكما تعلم تعتقدان أنني أسافر مع لينش.

ستصاب السيدة غرايون بنوبة قلبية إن عرفت أنها ستمضي ليلة لوحدها مع رجل غريب ولو أنه ابن أخ ليديا..

قال تشايس بخفة:

ـ لا داع لذكر أسماء.. وأعتقد أنهما لن تقلقا إن كانتا على علم بسفرك معه.. أم أنهما لا تعرفان بأمر لينش؟ أعني أنه لو كان رجلاً فسيعتبر هذه فرصة لا تعوّض.

أملت أن يكون يمازحها لكن بدا في عينيه لمعان أقلقها.. فهل يعتقد هو حقاً أن هذه فرصة لا تعوّض؟

قالت:

ـ كان من واجبك أن تعلمني مسبقاً بما ستتطلبه هذه الرحلة.

ـ وهل كنت تظنين أننا ستتمكن من قطع أربعماية ميل في سيارة تجرّ مقطورة في اثنتي عشرة ساعة.. لقد بدوت مصممة على الوصول إلى اسكتلندة بأي ثمن. ولو شرحت لك أما كنت ستأتين؟

ـ أنا.. ربما فكرت مرتين.

ـ يبدو هذا شكاً في أخلاقي.

ـ أنا.. لم أقصد هذا بهذه الطريقة.

بدأت تتساءل كم تبعد عن أقرب محطة للقطارات.

عاد للسخرية منها:

ـ أوه.. هيا الآن يا فتاتي.. امرأة مجربة مثلك يمكنها التعامل مع موقف كهذا.. هل أنت خائفة من رجل مسكين؟ ألم تخبرك صديقاتك المتحررات بأننا جنس أرقى منزلة من جنسكن؟ وماذا تظنين أنني سأفعل لك؟

احمر وجهها مجدداً لشعورها بالذنب، إنها لبست في خطر فهو بنظ



إليها كطفلة منهورة ويتسلى بالضجة التي تفتعلها.. لقد عرض عليها بكل لطف أن يأخذها معه لأنها كانت في مأزق، والشك في نواياه مكافأة مهينة لكرمه.. إنها تافهة وسخيفة لظنها أنه سيستغل الموقف.

وقالت:

ـ أعتقد أن من الصعوبة التخلص تماماً من تأثير التقاليد البالية عندما يتربى المرء عليها.

وأحست بالفخر لجملتها.

ـ ظننتك تتعمدين تحديها.

رفعت رأسها إلى الوراء بتحدٍ:

ـ أجل.. هذا صحيح.. أنا مستعدة للتخييم في الخارج إذا لزم الأمر.

نظر إليها نظرة طويلة لم تستطع تفسيرها، ووقف:

ـ عظيم.. سأتصل بلابدي الآن.

ـ أوه.. أجل، أرجوك.

لم تكن ترغب أبداً بالتحدث مع ليديا هارغريفز فقد تطرح أسئلة محرجة، وانتظرت تشايس خارج المقهى. تنظر بأسف إلى السيارة.. من المؤسف جداً أنه لن يسمح لها بقيادتها.. إنها متلهفة شوقاً لتضع يدها على المقود.. وخرج تشايس يصفّر بمرح.

ـ لقد تحدثت مع عمتي.. وستبلغ أمك وأختك أنك تأخرت في الطريق.. تصورت أنني صادفتك مع لينش على الطريق، وأن سيارتكما تعطلت.

ضحك بخبث:

ـ هل يرضيك هذا؟

ـ أوه.. تماماً.. سأطلعهما على القصة كلها حين أصل.. المسألة الأهم هي أن لا تقلقا.

ـ أوه.. أجل. لقد قالت لايدي إن كليف متشوق جداً لرؤية السيدة

الجميلة التي ستستأجر كوخهم، أعتقد أنها شقيقتك ويبدو أن أحداً أرشده إليها.

أدار السيارة، فسألت:

ـ وهل أنت أيضاً متشوق لرؤية كلير؟

هز كتفيه:

ـ السيدات الجميلات لسن أمراً جديداً عليّ.

أحست جنيفر بثقل غريب بقلبها، مع أن لا دخل لها بعدد الجميلات اللواتي يعرفهن.. وتابع:

ـ أعتقد أنني سأقابل أختك عندما أحضر لك كتاب شعارات النبل.

أحست ببعد نظر يسبق الأحداث وكادت تصيح: لا تأتي! وانكمشت من تصوره يقع في حبها، مع أنها لا تجد سبباً منطقياً لخوفها هذا.. فهما سيكونان رائعين معاً.. هو الوسيم الأسمر، وكلير الشقراء النحيلة.

قالت متسائلة:

ـ أتساءل عما إذا مرّتا بنا على الطريق؟

ـ هذا ممكن، فسيارتهما ستسير ضعفي سرعة سيارتنا.. لكن يمكن أن يكون السائق قد أخذهما عن طريق «نيوكاسل» و «بيرويك» إنها طريق أسرع من هذه.. هل تريدين مناداتهما إذا رأيناهما؟

ردت بتأكيد: لا.

ورفع حاجبيه عجباً:

ـ أتظنين أنهما لن توافقا عليّ.. وتحاولان إنقاذك من بين براثني؟

ـ أوه.. لا تكن سخيفاً!

لا يمكن لأمها وأختها أن لا توافقا على تشايس، لكنهما قد تعترضان على تركها لوحدها معه.. خاصة وأن الأمر يشمل قضاء ليلة معه.

وقالت بطفولية:

ـ ما أفعله هو شأني الخاص.

ـ إعلان آخر للاستقلال؟



ـ طالما تفذت ما أريد.

ـ وهو يوافق الآن ما أريده أنا.

ـ طبعاً.

ضحكت غير واثقة تماماً عم يتحدثان..

أخذ الريف يزداد جاذبية.. وأصبح بالإمكان رؤية سفوح جبال «تشايس» إلى يسارهما. بدأت جنيفر تشعر بالنعاس، لقد استيقظت في ساعة مبكرة جداً.. وصمت تشايس.. لا بد أنه متعب.. ثم قال بلطف مع هز رأسها بالانحناء:

ـ حتى قيلولة إن كنت راغبة.

عندما أفاقت وجدت أن السماء تشع بأنوار الغروب وقال تشايس:

ـ ستتناول العشاء هنا.

* * *

## ٣ ـ دروس الذئب

كان الفندق الذي أخذها تشايس إليه من النوع الذي يرناده علية القوم.. مبنى قديم من الخشب المصنع يدوياً ومطلي بالأبيض، مع نوافذ من الخشب المتشابك.. يقع إلى جانب جبل، ويطل على وادٍ حيث تبدو سقوف منازل بلدة يمر نهر في وسطها.

أوقف تشايس سيارته في فسحة إلى جانب الفندق مخصصة لهذا الغرض، ونزل مستديراً حول السيارة ليفتح الباب لجنيفر.

نظرت حولها باستغراب وهي لا تزال نصف نائمة.. عندما غفت كانا يقطعان منخفضات «الميدلاند» أما الآن فيظهر أمامها نوع مختلف تماماً من الريف.

سألت:

ـ هل هذه اسكتلندة؟

ـ لا.. ولن نصل قبل العديد من الأميال بعد.. هل نمت جيداً؟

ابتسمت باعتذار، تخشى أن تكون فشلت في دور رفيق سفر.

ـ وكأنني لم أنم منذ زمن بعيد.. وأنا آسفة.

ـ لمَ الأسف؟ ما فعلته أمر متعقل جداً.. في الواقع توقفت بدوري في فسحة إلى جانب الطريق وأخذت غفوة. لا سبب يدعونا للاستعجال، فلن يتوقع أحد وصولك قبل الغد.

وتابع إقفال السيارة.

ـ وهل سنخيم في مكان قريب؟



ـ لا.. بل أريد أن نبتعد أكثر.. إن زحمة السير كبيرة هنا وأفضل الراحة في مكان منعزل.

ترددت لحظة والحذر يوترها.. هناك بلدة في الأسفل حيث يمكن أن تجد فيها وسيلة نقل.. فمكان تخييم منعزل في منطقة الحدود يبدو لها أمراً مريباً.

قالت متسرعة:

ـ أعتقد أنه يوجد قطارات تتجه إلى إدنبره من ذلك المكان.

ـ هذا ممكن، لكن الوقت متأخر وعلى الأرجح لن يكون هناك قطار قبل الصباح.. ما الأمر.. هل أنت مترددة؟

سوف يسخر منها بالطبع لو تراجعت الآن:

ـ أنا فقط.. كنت أتساءل.

أمسك مرفقها بيده وقادها نحو الفندق.

ـ تعالي.. ما نحتاج إليه الآن وجبة جيدة وشراب دافىء.

أذعنت له بخضوع.. فليس لديها رغبة في تركه، بل مجرد حذر أحست به متأخرة.. ولم تشعر بالراحة لفكرة الجلوس لساعات طويلة في محطة قطار مهجورة.

نظرة في الفندق وهما يدخلان أكدت لها أنها لو كانت ستدفع ثمن وجبة هنا، فستتسبب في عجز كبير في ميزانية صرفها.. وهو يعرف هذا، لذا أصر أن تكون ضيفته. وأحست بعرفان جميل نحوه.. إنه كريم جداً معها ومقدر لشعورها وهي تظلمه في شكها بنواياه.

دخلت جنيفر إلى غرفة السيدات، فمشطت شعرها المشعث وغسلت عينيها الناعستين.. أحست بانتعاش ونشاط وعادت لتنضم إلى تشايس.

دخلا إلى غرفة الطعام الكبيرة، بجدران من خشب السنديان المكشوف، وطاولات طويلة مصنعة يدوياً، مغطاة بقماش من الدانتيل الأبيض، وعليها أوانٍ من فضة.. كان هناك عدة زبائن آخرين أكثرهم من المسافرين مثلهما.



فراشة الحبة
www.liilas.com

تألفت الوجبة من الحساء وعصير الفاكهة.. سمك نهري مشوي من صيد محلي كما أشار لها تشايس.. حلويات بالفاكهة، جبن وبسكويت. وبدأت جنيفر تشعر أنها من غير هذا العالم، وكأنها كانت مع تشايس على الطريق منذ أسابيع.. وتلاشت الشكوك التي أحست بها حول الليل القادم، فالرحلة الطويلة، الطعام الجيد، دفء المكان، ورفقة تشايس المثيرة قبل كل شيء، كانت كلها تؤثر عليها بشدة.. لقد كان أجمل رجل في الغرفة.. وضحكت وثرثرت بمرح.. وحمل ابتهاجها لوناً زهرياً إلى خديها ووميضاً إلى عينيها الرماديتين.. وراقبها تشايس بتقييم كسول، وهي تتحدث بنشاط وحيوية.

أصبح عند نهاية الوجبة أكثر جدية، ربما كان يعتبر أنها تمادت كثيراً في مرحها.. لذا عاد إلى حديثه الجاد، يبلغها أن من حولهما بقايا ما يعرف «بسور هادريان».

لكنها كانت تود أن تسمع أكثر عن الأملاك التي ورثها وكم سيبقى في إدنبره، وأكثر من أي شيء آخر ما إذا كان هناك امرأة في حياته.. وأملت أن تؤثر عليه حميمية المكان ليفضي إليها بشيء من أسراره.. لكنه استمر في حديثه وتطرق إلى موضوع احتلال الرومان لبريطانيا.

سألت أخيراً بيأس:

ـ أظنك ستزور عمتك كثيراً وأنت في إدنبره؟

ـ سأزورها بين حين وآخر.. فأنا أحب لايدي المجوز، لكنني لا أتفق جيداً مع كليف فأنا وهو نختلف حول أشياء كثيرة.

تمتمت بخبث:

ـ ربما لا يهتم بأمور شارات النبل؟

ضحك تشايس:

ـ هذا صحيح تماماً.. ولا تهمه إطلاقاً صلتي النبيلة التاريخية بالموضوع.

ـ أظنه لا يمتلك لقباً؟



أسلت أن يكون كليف جذاباً مثل ابن خاله، وبما أنه سيقيم في البيت المجاور لهن تقريباً فقد يتمكن من التوافق مع كلير.

لم تفهم السبب الذي يثير فيها مثل هذا الأمل. لكنها تدرك أنها بدأت تنجذب أكثر فأكثر لتشايس.. إنه لا يشبه أبداً أياً من الفتيان الذين عرفتهم سابقاً.. ليس فقط لأنه أكبر سناً وأكثر ثقة بنفسه، بل لأنه من نوعية مختلفة، ما قد تصفه أمها «بالمستوى».. كانت قد رأت الكثير من أمثاله في المرآب، لكنهم كانوا على الدوام متباعدين عن جوها، مخلوقات متنافرة يوجهون لها هزة رأس وابتسامة حين تقدم لهم خدمة ما.. أما أن يمنحها قدرها بمعرفة مقربة مع شخص كهذا فهذا أمر يخطف الأنفاس، ولم يكن لديها شك في أن قلبها في خطر.

هز كتفيه رداً على سؤالها، وقال:

ـ بالعكس.. كليف له حق في حمل شعار نبل.. لكنه يجفل لفكرة دفع رسوم التسجيل والزيارات.

مع رجل آخر، لكانت جنيفر وقفت في صف كليف.. فقد يبدو الرجل متمتماً للتاريخ أكثر من انتمائه للديموقراطية الحديثة.. لكن بالنسبة لتشايس، فهو محق تماماً، يجعلها تفكر بكل الأبطال الرومانسيين الذين مروا بتاريخ «الهايلاند».. إنه الصورة المناسبة لحمل تقاليدهم.

تابعا رحلتهما مع غروب الصيف عبر ريف تتزايد عزلته.. وأصبحت السيارات على الطريق أقل بكثير.

وصلا إلى «ريدسدال» فقال تشايس إن الظلام أصبح كثيفاً ولن يستطيعا التقدم أكثر. ثم دخل عبر بوابة تقود إلى حقل، وأوقف المحرك. قال:

ـ أظن أن المكان هنا سيفي بالغرض تماماً.. ولا أعتقد أن صاحب الحقل موجود في مكان قريب في مثل هذا الوقت من الليل ليعترض على بقائنا هنا.

ترجلت جنيفر من السيارة ونظرت حولها.. كانت الطريق أمامها

ترتفع صعوداً نحو الممر عبر «تشيڤيون» بوابة اسكتلندة، وبدت جبال البينيس مغطاة بغابات ضخمة سوداء أمام تلاشي أنوار السماء. . أما من الناحية الأخرى للطريق، فتظهر تلة خضراء منخفضة تخفي تصاعد القمر. . وبدت بضعة خراف لا تزال ترعى بين الأعشاب هي المخلوقات الوحيدة الموجودة في هذا المكان عداهما.

قالت برهبة:

ـ يبدو المكان فارغاً جداً.

ضحك تشايس:

ـ ليس مثلما يبدو نهاراً. . تزدحم هذه الطرقات بالسيارات في نهايات الأسبوع، لكننا الليلة محظوظان. . المكان لنا وحدنا.

فك رباط السيارة، وأمن وقوف المقطورة على دعائمها بعد أن سندها بعدة أحجار كبيرة. . واستغلت جنيفر الفرصة لتختفي بضع لحظات. عندما عادت وجدت أن تشايس فتح المقطورة ودخل إليها، وكان النور يخرج من النوافذ بعد أن أضاء المصابيح التي تعمل على «البطارية». . في هذا الوقت، كان القمر قد ارتفع من وراء التل ينير الأرض بنور مهيب لكن المروج المفتوحة بدت معزولة غير ودية، ووجدت جنيفر نفسها ترتجف.

ناداها تشايس من المقطورة.

ـ لقد حملت حقيبتك إلى هنا. . ألن تدخلي؟

تحركت على مضض نحو المقطورة، وتوقفت مترددة عند الباب الصغير. . بدت المقطورة أصغر مما تصورت. . كان هناك أريكتان على الجانبين، ورف في أحد الطرفين، إبريق ووعاء على الطاولة بين سريرين وكان تشايس راكعاً على الأرض يسحب البطانيات من تحتهما. . وسألها:

ـ أتريدين شراشفاً؟

ـ لا. . لن أخلع ملابسي.

وقف على مهل وكاد رأسه يرتطم بالسقف، فأحناه قليلاً وهو يتمتم:



ـ صنعت هذه الأشياء للأقزام. . لكن يجب أن تخلعي ملابسك لتصبحين مرتاحة أكثر. . أعتقد أنك تحملين ملابس نوم في حقيبتك. هناك مياه نقية في ذلك الإبريق قرب الوعاء إذا أردت الاغتسال وتنظيف أسنانك. . إرميها إلى الخارج عندما تنتهين. . سأذهب لأتمشى قليلاً بينما تدخلين إلى السرير بعد أن تحضري السريرين. . فهذا ما أعتبره من اختصاصاتك.

تمتمت آلياً:

ـ أجل. . طبعاً. . هل تريد أن تشرب شيئاً أو أن تأكل؟

ـ ليس بعد ذلك العشاء. . وأنت؟

ـ لا. . أوه. . لا.

غمرها إحساس حرج غريب، فنظر تشايس إليها باهتمام وهي تقف حائرة:

ـ أبك شيء؟

إنها لم تدرك سابقاً كم أن المكان سيكون حميماً، لكنها لن تستطيع الإفصاح عما يشغل بالها.

وأكمل بنفاد صبر:

ـ تحركي إذن. . أنا متعب.

توقف نصفه في الداخل ونصفه في الخارج:

ـ عندما أعود أتوقع أن أرى سريري محضراً، وأنت في سريرك بعد أن تخلعي ثيابك.

لذعتها لهجته المستبدة فقالت بحرارة:

ـ أنا لست عبدة لك!

ـ ظننتك وعدت بأن تكوني مفيدة؟

انهارت دفاعاتها:

ـ سأحضر لك سريرك، أما أنا فأظن أنني أفضل النوم في السيارة.

بدت التسلية عليه:

ـ هذا ما لن تفعليه.

ـ أرجوك.

وضع يديه على طرفي الباب الضيق ومال إلى الأمام يحدق فيها وسأل بنعومة:

ـ ألم تتباهي أمامي بتحررك؟.. بكل تأكيد لن تمانعي في قضاء ليلة معي؟ قلت لي إنك لست بريئة! فكيف تتوقعين مني تصديق هذا؟ يجب أن تدركي أن هناك نتيجة واحدة في هذه الظروف وتحت نور القمر..

نظرت إليه بعينين واسعتين قلقتين.. هل هذا هو تشابس ماك كونال رفيق سفرها المتحفظ يقدم هذا الاقتراح المستحيل؟ لا شك أنه كان يخطط لكل هذا.. ثم يدعوه «نتيجة».. وهي، المسكينة الحمقاء، أوقعت نفسها في الفخ.

صاحت بصوت ضعيف:

ـ أوه.. لكنني لم أعتقد.. أنني.. أجذبك.. لقد ظننتني صبياً.

ـ النظرة الأولى فقط.. فتحت مظهرك الذكوري، امرأة كاملة قادرة على إعطائي.. ما أريد.

تصاعد غضبها لكلامه الصريح.. فارتفع رأسها وشدت قبضتيها وقالت من بين أسنانها:

ـ لا تتجرأ أن...!

بدا عليه الذهول:

ـ أتجرأ؟ ما دخل الجرأة بكل هذا؟ لقد اعترفت بأنك آنسة عصرية متسامحة ترغبين في التجربة.. وها أنا ذا.. مستعد أن أعطيك إياها.. دون ارتباطات متعبة كالخطوبة وتوقع الزواج.. ذلك الرباط الذي أبديت ازدراءك به..

بدا لها مصمماً على رأيه.. وندمت بمرارة على كل الكلام الهراء الذي تلفظت به.. لقد ظنها متشوقة للمغامرة، وتعمد مناورتها ليصل بها



إلى هذا الموقف مترقباً أن ترحب بنواياه.. هل عليها أن تكشف نفسها الآن؟ أن تعلن أنها ليست ممن يسعين إلى التجربة، وأنها تظاهرت بهذا؟ وأنها في الحقيقة طاهرة بريئة تماماً؟ لقد منعتها كبرياؤها عن مثل هذا الاعتراف سابقاً.. كانت تريد أن تؤثر عليه بمعرفتها لأمور الدنيا وكرهت اعتقاده بأنها غير محنكة، لكنها لم تكن ترغب أبداً بأن يحمل كلماتها النية على محمل التشجيع له.

تذكرت تحذيره لها بأنها ضعيفة معرضة للأخطار، وقولها له إنها قادرة على العناية بنفسها.. وتعتقد أنها لا تزال قادرة على هذا لو أنها واجهته بشجاعة.

قالت متعالية:

ـ دعني أخرج.. أنا لا أنوي أن أوفر لك مزيداً من التسلية. سأقطع ما تبقى لي من المسافة سيراً، فهذا أفضل من البقاء هنا معك.

ارتفع حاجباه وعاد إلى الداخل.. وقف قريباً جداً منها حتى كاد يلامسها.. وأحست فجأة بحيويته، وبدأ قلبها يخفق بين ضلوعها.

قال بنعومة:

ـ ألست مدينة لي بشيء مقابل أجرة سفرك والعشاء؟

قالت ساخرة:

ـ إذن هذا هو سبب كرمك معي، لكن دعني أقول لك أنا لا أعاشر إلا من يعجبني.

وكادت أن تعض لسانها فتقطعه.. مثل هذا التحدي لا يمكن أن يهدئه.. فسأل:

ـ وتجدينني بغيضاً؟

ردت بمبالغة:

ـ بشكل مريع!

ضحك ساخراً:

ـ هذا غير صحيح.. أنت ترتجفين ترقباً.. وستجدينني مقبولاً أكثر

من لينش.

كانت فعلاً ترتجف، لكن، ارتباكاً وتوتراً.. إنه مختلف جداً عن لينش الذي لم يكن أكثر من زميل عمل مفيد لها، ولم يحاول الحصول على شيء أكثر. ولا أحد سواه تمكن من الوصول إلى شيء..

قالت مؤنبة:

ـ لقد وثقت بك.

ـ حقاً!؟ وما الذي كان في فكرك ساعة تحدثت أمامي قبل الغداء عن عقبدتك المنحررة؟ ألم تكوني تلمحين إلى أنك حاضرة؟

ـ لكنني لم أكن أقصد..

وأطرقت برأسها خجلاً، فقال بعناد:

ـ إذا لم تكوني قاصدة، فيجب أن تحفظي لسانك.. لقد آن الوقت لأن يعلمك أحد درساً.

صاحت بارتياح:

ـ إذن.. أنت تحاول إخافتي؟

عاد مرة أخرى إلى اللهجة الساخرة البغيضة:

ـ إخافتك؟ الآنسة العصرية لا يخيفها مجرد رجل.

صاحت بشراسة:

ـ أبغضك!

ـ ممتاز.. فالعدائية ليست إحساساً سلبياً.. قد تكون مفيدة في البداية.. تعطيني فرصة لإثارتك حتى تصبحي أكثر دفئاً.

ـ أوه.. أنت..

وحاولت المرور من أمامه لتصل إلى الباب الضيق لكنه أمسك خصرها بقبضة من حديد.

ـ لا.. لن تذهبي.. لقد طلبت هذا وستحصلين عليه.

وضمها إليه معانقاً.. كان عناقاً مختلفاً تماماً عن أي شيء عرفته.. وبدا لها أن دمها قد اشتعل.. فتأوهت، وتراخت بين ذراعيه.. حملها



ضحكة انتصار ووضعها فوق السرير.. وقال محذراً:

ـ عندما أعود، أتوقع أن تكوني جاهزة لي.

وسمعته يقفل الباب من الخارج.

قفزت بسرعة تحاول فتح النافذة الخلفية.. لكنها كانت محكمة الإغلاق.. ماذا ستفعل؟ ليس هناك مكان تلتجيء إليه.. هل تجوب الشوارع طوال الليل في هذه الأرض الغريبة؟

تلاشى ذعرها مع تلاشي المشاعر التي تسبب بها عناق تشايس. عندما يعود سيتوسل إليه.. وراحت تحضر السريرين بشكل آلي.. لكنها لم تقنع نفسها. ستعترف له أن كل ما قالته على الطريق كان مجرد هراء.. وأنه لا يمكن أن يكون من النوع السيء. ليس مع كل كلامه عن شرف الفارات النبل.. وأنه بنى اعتقاداته من الحماقات التي قالتها، وبطريقة ما يجب أن تقنعه بالعكس.

صحيح أنها كانت بريئة إلا أنها لم تكن جاهلة. لم يكن لديها أي علاقة عاطفية مع أحد من الجنس الآخر.. وافترضت أنها بعد ذهاب كلير عن طريقها ستتمكن من التعرف إلى رجل جذاب.. وسمعت صوتاً داخلياً يهمس: مثل تشايس.. لا ليس مثل تشايس الذي يتصرف الآن هكذا، كالوحش.. بل إلى رجل كالأسد الواثب الذي طالما تكلم عنه.. ثم تنمو بينهما تلك الزهرة التي يسمونها الحب.. لكن يجب ألا تكون تلك الساعة هكذا، مجرد مغامرة مع غريب لن يفكر بها مرة أخرى..

كان ذلك العناق تجربة مشتتة لأعصابها، تسارعت له دقات قلبها وأنفاسها.. ثم تبع الفضول شيء من الغضب.. كيف يجرؤ على تعريضها لمثل هذا الإذلال.. إنه يرى فيها فرصة لنيل ما تسميه الفتيات الأخريات قليلاً من المرح.. مرح! لا شيء مرح أبداً فيما حصل.

تكورت فوق الأريكة تحاول جمع أفكارها. ماذا ستقول له لتثنيه عن عزمه؟

قفز قلبها من مكانه وهي تسمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب،

وأدارت عينين مذعورتين نحوه وهو يدخل.. فتقدم ليقف إلى جانبها.. طيف طويل ضخم ينذر بالشر.. وتسابقت نبضاتها.

سأل:

ـ لماذا لست في السرير؟

همست:

ـ أنا.. لا أستطيع.. تشابس، أرجوك.. أنا.. أنا لست ما قلت إنني.. أنت تقسو عليّ لتخيفني.

أجاب على توسلها:

ـ اخلعي ملابسك وادخلي الفراش فوراً.. أم تريدين أن أخلعها عنك؟

ـ لا.. لا.. أوه..

وأخذت تفتش مذعورة عن ثوب نومها:

ـ إذن هيا.. اخلعيها.

دهشت حينما أدار لها ظهره وراح ينظر إلى خارج الباب الذي لا زال مفتوحاً.. فأسرعت في خلع ملابسها وهي خائفة من تهديده الأخير، وارتدت البيجاما وعيناها على الطيف الساكن الذي لا يتحرك. اندست تحت البطانية ترفعها حتى العنق، وجلست وركبتاها مرفوعتان بينما قلبها يضرب بقوة حتى ظنت أنه سيخنقها.. مع ذلك لم يتحرك تشابس أبداً. أجفلها نعيق بومة وزادت حدة التوتر في الصمت المطبق إلى أن لم تعد تطيق صبراً.. فقالت بصوت ضعيف:

ـ أنا في الفراش الآن.

استدار متقدماً نحوها.. وملأ وجوده المكان كله داخل المقطورة، مع أنه ليس بالرجل الضخم الجثة.. وقف إلى جانبها ينظر إليها مبتسماً ويداه في جيبي بنطلونه.

أمسكت جنيفر ركبتيها بذراعيها، وأحنت رأسها.. بدت صغيرة جداً لا حول لها ولا قوة، كأرنب صغير مذعور ينتظر أن ينقض عليه مر



مفترس.

كان صوته قاسياً لا إحساس فيه ولا رنة شفقة أو تردد وهو يقول لها:

ـ تذكري أنك تحت رحمتي بالكامل ولا مجال للهرب. أترين.. بعض امتياز التفوق للذكر دائماً.. وقوته الذكرية هي المسيطرة أبداً.

قلت جنيفر دون حراك، تعرف أن هذا الكلام صحيح جداً.. لا أمل لها في مقاومته جسدياً. لكن ليس هذا فقط السبب في خفقان قلبها.. بل كان الوعي الغامر برجولته، وتجاوبها الذي لا تريده معه.

ثم أضاف بلطف أجفلها:

ـ ألست لم تمري بمثل هذه التجربة من قبل، أليس كذلك جنيفر؟

رفعت رأسها ورأت أن وجهه هادىء وقور والعينين الرماديتين دون قرار.. وهزت رأسها نفياً.

جلس عند أسفل سريرها، يتابع كلامه بذات الطريقة اللطيفة إنما بعبارات موبخة:

ـ ما كان عليك الادعاء فتاتي، فما من كلمة صدق واحدة في كل الهراء الذي رددته بكل اقتناع. أليس كذلك؟ أنت لم يكن لديك.. رجل قبلاً.

هزت رأسها مرة أخرى نفياً.. تتساءل ما الذي غيّره، وتابع:

ـ ربما كنت تقرأين الكتب التافهة.. أو تصغين إلى تبجح الفتيات الأخريات.. وهذا ما وضع تلك الأفكار في رأسك الصغير السخيف.. أرجو أن أظنك ماكرة مجربة.. وهذا كل شيء.. أليس كلامي صحيحاً؟

تنهدت جنيفر مدركة أن الخطر قد زال، وعاد تشابس مجدداً ليكون عطوفاً، رقيقاً، كما كان خلال الرحلة.. وتلاشى تماماً كل أثر للشوق العنيف الذي أظهره عندما عانقها، وهذا ما أثار غضبها مجدداً.

ـ إنه اجتماع ذهبت إليه لدعم تحرير المرأة.. كانت المتكلمة امرأة تدعى فرانسيس بالمر.. واعتقدت في ذلك الوقت أن ما تقوله.. معقول.

ـ وهكذا فكرت أن تؤثري علي ونختبري قوة إغوائك.

صاحت مذعورة:

ـ لا . . ! لم أفكر أبداً بأن أغويك.

ـ ألم تدركي أن كل كلمة تحدٍ كنت تتلفظين بها تُعتبر دعوة؟ كل بالإمكان أن ينتهي بك الأمر إلى أن تحصلي على ما لم يكن في حسابك وشكراً لله أنني كنت أنا وليس نذلاً يمكنه أن يستغل سخافتك.

استند إلى جدار المقطورة ينظر إليها بسخرية:

ـ أنت طفلة لطيفة جنيفر. . يجب ألا تقعي في مأزق كهذا. . لديك فرصة في أن تكوني امرأة جميلة، جذابة. . وأكره أن أراك منحطة.

صاحت ساخطة:

ـ كان بالإمكان أن تقول لي كل هذا دون إخافتي.

لم يعجبها إصراره على طفولتها. . فالمشاعر التي حركها فيها لم تكن طفولية، وابتسم:

ـ لكن ذلك دون جدوى. . ولكنت أصريت على أن وجهات نظري متخلفة وأنني قديم الطراز وأفضل أن تكون النساء. . محتشمات. . كنت واثقة من قدرتك على التعامل مع أي موقف، وواضح أنك لم تصلحي لهذا. . ما كان يجب أبداً أن تثقي بي، وأنت لا تعرفين شيئاً عني.

ـ لكنني أعرف. . أنت ابن أخ السيدة هارغريفز.

ـ وواضح أنها لم تذكرني أمامك أبداً. . وربما أكون مطروداً من عائلتي بسبب آثامي. . لا. . هذا لم يحصل، لقد ربيت بعيداً عنهم وأنا في انكلترا. . لكنك لا تعرفين هذا، إنك متسرعة في ثقتك بالناس. . لذا قررت أن أعطيك عرضاً عملياً لما ينتظرك. . وأرجو أن تكوني أكثر احتراساً في المستقبل.

إنه ينظر إليها كمراهقة مزعجة مغرورة، وابتدع كل هذه القصة المثيرة للسخط كي يخجلها. وصاحت باهتياج:

ـ أعتقد أنك تصرفت كمتوحش لا رحمة فيه. . وأنا الآن أكرهك حقاً!



لمحت مرة أخرى الابتسامة المتفوقة التي تكاد تدفعها إلى الجنون.

ـ ستعيشين لتشكريني.

إن آخر شيء تريده منه هو الشفقة على عملها المراهق الشرير. . بدا لها هذا كثيراً على أعصابها المتعبة، فبدأت تضحك وهي تقول شاهقة:

ـ لقد انقلب الذئب إلى معلم. . يا لها من مزحة!

انقلب ضحكها إلى هستيريا، ثم إلى عاصفة عنيفة من البكاء. . أحست أنه يحتضنها بلطف وحنان يملس شعرها. . ويتمتم بعطف:

ـ لا بأس عليك فتاتي الصغيرة. . لا تأخذي المسألة بهذه القسوة. . أخشى أن يكون الدرس قاسياً عليك.

هدأت بالتدريج ووجدت الراحة بين ذراعيه اللتين كانتا تحملان حبيباً لها منذ لحظات.

مع تلاشي نحيبها، أخرج منديلاً نظيفاً من جيبه ومسح لها عينيها وسألها:

ـ أفضل الآن؟

همست: أنا بخير.

كان شعرها البني الأشعث تحت ذقنه، ونفوح من كنزته التي تضغط عليها رائحة سرخس البرّية والخلجان. . كانت تسمع تحت خدها دقات قلبه المنتظمة. . وتمنت لو يبقيها مضمومة إليه هكذا طوال الليل لشعر بقوته التي لن يستخدمها ضدها أبداً بل للدفاع عنها فقط وحتى حمايتها من حماقاتها.

قال بلهجة عملية:

ـ حسناً. . من الأفضل أن تنامي.

ألقاها فوق السرير، وجذب الأغطية فوقها وكأنها فعلاً طفلة. .

قالت بصوت يرتجف:

ـ أنا آسفة لأنني كنت حمقاء هكذا.

عرفت الآن أنها لا يمكن أن تكرهه. . وعاد البريق المرح المألوف

إلى عينيه.

ـ أجد حماقتك مقبولة تماماً.

ردت:

ـ أنت ستكون.. أباً رائعاً.

ارتفع حاجباه:

ـ حقاً؟ لم أتصور نفسي من قبل بدور أبوي.

ـ لديك طريقة التربية الصحيحة.. العصا.. ثم الحلوى.

ـ والآن جنيفر.. لا تحاولي إثارتي مجدداً.. فأنا واثق أنك لا تريدين المزيد من.. العصا.

انحنى فوقها يلامس خدها بشفتيه:

ـ تصبحين على خير.. يا صغيرة.

أزعجها تصرفه وأدهشها في آن واحد.. إنه لطيف جداً.. متحفظ كثيراً. همست:

ـ تصبح على خير.

وأغمضت عينيها.. فهو لا شك بحاجة إلى القليل من الخلوة ليستعد للنوم.. وتساءلت ما إذا كانت ستتمكن من النوم وهو قريب هكذا منها. فتحت عينيها مجدداً على صوت الشراشف، ورأت أنه يأخذ البطانيات عن السرير الآخر، فسألت بلهفة:

ـ ماذا تفعل؟ ألم أرتبها كما تحبها؟

ـ لا أعترض عليها. لكنني أفضل النوم في الخلاء، وجدت تجويفاً ملائماً وأفضل أن أكون تحت النجوم.. إنها ليلة دافئة.. لا تقلقي.. لن أكون بعيداً.

مدت يدها إليه باندفاع متهور، كل ما تعرفه أنها لا تريده أن يتركها وحيدة وقالت:

ـ لا تذهب.

نظر إليها ضاحكاً من فوق كومة البطانيات:



ـ يا صغيرتي.. هكذا آمن.. حتى المعلم يمكن أن يكون ضعيفاً.. خفي جيداً، ومرة أخرى تصبحين على خير.

أطفأ النور وخرج مغلقاً الباب خلفه، تاركاً جنيفر مع إحساس ثقيل بالحرمان لا تستطيع تفسيره.

* * *

## ٤ ـ الجنية الطيبة

نامت جنيفر مرهقة مما مرّ عليها من كرب عاطفي، وبعمق. استيقظت مع شمس الصيف المسيطرة على الأفق، ووجدت أن النافذ فتحت لتسمح بدخول رائحة بيض مقلي.. فقفزت واقفة لتنظر إلى الخارج. كان تشايس قد أخرج الطبّاخ الصغير من المقطورة، والمعدات اللازمة، وفرش مفرش طاولة على العشب، وكان مشغولاً بتحضير الفطو في الخلاء.. لم يكن هناك ريح تعوقه، وأظهرت الشمس المبكرة حبا كريستال على شعره الأسود.. لا بد أنه استحم في النهر.. لكن بما أ حليق الذقن كذلك، أدركت جنيفر أنه لا بد دخل وخرج من وا المقطورة، وهي لا تزال نائمة

بدا وكأنه وسط محيطه المألوف تماماً في هذا المنظر البرّي الرائع رجل الجبل والوادي.. وبدا عمله في قلي البيض واللحم في المقلاة غ مناسب له إطلاقاً. كان يجب أن يكون أمامه فخذ غزال يدور على سفو فوق النار، وأن تكون هي الطاهية.

رفع رأسه مبتسماً وكأنه أحس بنظرتها إليه، فاحمرت خجلاً وم تتذكر ما حدث ليلة البارحة.. ترك طهوه وتقدم إلى الباب يفتحه بما يكف ليدخل رأسه.

حياها بلهجة اسكتلندية مرحة ثم قال:

ـ ستجدين بعض الماء الدافىء في الطست، وسيكون فطورك جاه ما إن ترتدي ملابسك.



أغلق الباب وعاد إلى عمله، بينما اغتسلت جنيفر، وزينت نفسها.. لم تسرع في عملها، فقد كانت مترددة في مواجهة عينيه الرماديتين المتحمستين. كانت تعرف أنه واساها وطيب خاطرها وأنها لانت نحوه لدرجة أن يتمنى لها ليلة سعيدة.. لكن مشاعرها هذا الصباح بعيدة عن السعادة.. فما كان مضطراً لمواساتها لولا أنه تصرف كمتسلط، وألقى عليها محاضرة في الواجبات والسلوك الحسن.. ما هو الحق الذي دفعه إلى أن يعلمها درساً؟ تصرفاتها الأخلاقية ليست من شأنه.. وكلما فكرت في هذا أكثر كلما زاد عمق سخطها.. لو أنها لم تعرف بالغريزة أنه أهل الثقة لكانت حذرة بما تفعل وتقول.. مع ذلك، عرفت أثناء تلك اللحظات الرهيبة من التوتر المثير أنه قادر على تنفيذ نواياه.. ولا شك أنه حين وصل به الأمر إلى مواجهة الواقع، وجدها صغيرة جداً ساذجة، لا تستحق عناء متابعة هدفه الأصلي.

لقد سلبت أختها الجميلة منها كل اعتقاد في قدرتها على جذب الجنس الآخر، وما كان تبجحها بالشجاعة سوى ستار لإخفاء نقص ثقتها بنفسها.. ولقد صدق تشايس تبجحها، لكنه سرعان ما اكتشف غلطته وأخذ تراجعه بتلك المحاضرة التي طعنت كبرياءها كثيراً.

نظرت إلى وجهها في المرآة المربعة المعلقة على الجدار، إنه وجه عادي.. ورأت في عيني خيالها صورة منعكسة لأختها إلى جانبها.. الشعر الجميلة التي سبقتها أسطورة جمالها إلى اسكتلندة، لو أنها في جمال أختها لما استطاع تشايس كبح نفسه بتلك المحاضرة الأخلاقية.. لقد منحته بساطتها تسلية للمساء، وغير من لهجته حين أصبح الموقف جدياً.. السيد تشايس ماك كونال ليس بالقديس.. لقد كان خبيراً في الطريقة التي عاملها بها وهذا ما جعل معاملته لها لا تغتفر.

كان الصباح والمنظر يرفعان من المعنويات كثيراً.. وأحست جنيفر بتحسن بعض من غضبها أمام تأثير الجمال حولها.. جلست على أحد الكراسي الصغيرة وحيته بقدر ما تستطيع من وقار:



www.liilas.com

ـ صباح الخير.

نظر إليها نشايس متسائلاً وهو يحمل لها طبق بيض ولحم مقلي وخ
محمص.. وسألها بأدب عما إذا كانت قد نامت جيداً، ورأت أنه حض
إبريقاً من الشاي.

قالت ببرود:

ـ كجذع شجرة مقطوع، وأرجو أن تكون قد نمت جيداً كذلك.

أخذت منه الطبق وأدركت أنها جائعة جداً.. لم يفسد توتر اللي
شهيتها.

قال:

ـ أمضيت ليلة رائعة.

واستدار نحو إبريق الشاي:

ـ أرجو أن يعجبك الحليب المعلب؟ لم أستطع أن أجد بقرة، يبدو أ
لا وجود سوى للغنم هنا.. في الواقع، الانزعاج الوحيد الذي عانيته لي
كان حين دست نعجة فضولية أنفها بأنفي.

وضحك بمرح:

ـ أعتقد أنها عرفت أننا متطفلون، وهذا صحيح.

ناولها كوب شاي، وعاد ليتفحص خريطة كانت أمامه.. وقال:

ـ أقترح أن نذهب عن طريق «ميلروز» وإن كان لدينا الوقت فسنلق
نظرة على «آبي».. إنها شهيرة كما تعلمين.. هل أنت مستعجلة للوصو
إلى «روز كوتاج»؟

قالت بقليل من الأسى:

ـ لا يهم متى أصل.

فهي لا تظن أن أمها وأختها ستكونان بانتظارها بكثير من نف
الصبر.. خاصة إذا كان كليف هارغريفز معهما.. إنها تكره تشايس لعد
اكترائه.. فهل سيبقى هكذا لو كانا حبيبين؟ ونظرت إليه متسائلة فوجدت
اهتمامه منصباً على خروف يقترب من المخيم، وكان يحاول إغرا



المقدم أكثر بتقديم قطعة خبز له.

رد عليها:

ـ هذا عظيم.. أكره الارتباط بمواعيد محددة، أظن أن هذه هي
النعجة التي قطعت علي نومي.. تعالي، حلوتي، لن أؤذيك.

قدمت النعجة بحذر، وعنقها ممدود نحو يده..

قالت جنيفر بازدراء:

ـ ليس هذا ما يمكن أن أختاره كرفيق نوم.

أدار رأسه ونظر إليها بحدة.. فاحمر وجهها.. سأل:

ـ وهل كان لدي خيار آخر؟.. لقد أوضحت تماماً أنك لن ترحي

زاد احمرارها:

ـ حسناً.. وماذا كنت تتوقع؟

ضحك:

ـ من حديثك.. ليس ما حصلت عليه.

قررت النعجة هنا أن تقبل ما يعرضه عليها وبهذا ألهته، فارتاحت
جنيفر للأمر.. انتزعت قطعة الخبز وتراجعت عن يده الممدودة.. لكنه
تابع إتباعها بالتقدم إليه، بينما كانت جنيفر تنهي طعامها والغضب يتملكها
ثانية.. إنه ضجر من صحبتها، ويجد النعجة مسلية أكثر.

قالت بصوت متعالٍ:

ـ حين يعرض المرء رأياً، لا يعني هذا أنه سيطبقه.

ـ لكنني حين أعبر عن رأي، يكون لدي نية بكل تأكيد لتطبيقه..
يجب أن تكوني حذرة أثناء تصريحك بوجهات نظرك، إذا كنت لا
تريدين أن يسيء فهمك أحد.

ـ أوه.. ألا يمكن أن نترك الموضوع؟ ليس من الضروري إعطائي
محاضرة أخرى.

ـ جيد.. وأنا مسرور لأنك فهمت الرسالة وأخذت تحذيري جدياً.

لم تكن تعني هذا بما قالته له، وزاد غضبها لتصرفه المعتد بنفسه المتكبر.. وكادت تنطق بالكلمة.. نظر إليها بمكر وعرفت أنه خمن أفكارها فقالت:

- أرجو أن تطبق ما تعظ به.

- بما أنك تعبت من الموضوع، فلن أرد عليك..

سألت ببرود:

- هل أغسل الصحون؟

- أرجوك! في الواقع هذا ما كنت أتوقعه منك.. لقد قمت كما تلاحظين بحصتي من العمل.. وأرجو أن تكوني لاحظت كذلك مقدرتي في الطبخ.. فأنا لم أكسر البيضة ولم أحرق اللحم.

- ما من أحد ينكر أن الرجال هم أمهر الطهاة.. هذا إذا كان هناك أحد ينظف من ورائهم.

بدأت بجمع أدوات الطبخ ثم نظرت إليها وهي تحملها:

- الطبخ عمل إبداعي.. لكن هذه.. إنه العمل القذر الذي يترك عادة للنساء.

- لو أردت الإبداع في الفطور، لوجب عليك أن تستيقظي باكراً.. لكني أخشى أن تكوني مضطرة هذا الصباح للقيام بالعمل القذر.

كان من الأدب أن تشكره على تحضيره الطعام، لكنها كانت غاضبة جداً فلم تستطع أن تقول سوى:

- أنا لا أتذمر.

وأدخلت حملها إلى المقطورة.

غسلت الأدوات بما تبقى من الماء في الإبريق ورتبت كل شيء في محله، ووضعت البطانيات والشراشف تحت السريرين. ثم أعادت توضيب حقيبتها.. إنه لن يثق بها في أعمال الطبخ أكثر من ثقته بها في قيادة السيارة.. كل ما يعتبرها صالحة له هو التنظيف، وأن تكون هدفاً لملاحظاته الساخرة.



حمل تشايس الكراسي والأشياء الأخرى حتى الباب وتركها لها لترتبها في أماكنها، وكان يصفر بمرح. لكنه لم يكلمها وكانت بدورها حذرة في أن تبقي ظهرها إليه.. ثم اهتزت المقطورة بعد أن أزال الأحجار وأرجع السيارة إلى وضع مناسب ليعيد وصلهما.. وسمعت ثغاء النعجة الصغير بعد أن أدار المحرك.. وتساءلت ما إذا كان هناك خراف في الثلاث التي ورثها قد يفسر اهتمامه بهذه النعجة.. أم أن الحركة كانت لمجرد التكبر عليها؟

جاء المتكبر إلى باب المقطورة، يستند دون اكتراث على حافته..

- أنا جاهز للإنطلاق، فهل ستأتين إلى السيارة معي، أم تفضلين أن أتركك «حردانة» لوحدك؟

- لست «حردانة».

- إذن، لم هذا التصرف البارد؟ بدأت أعتقد أنني أهنتك لأنني لم أعرك.

كان في كلامه هذا كثير من الحقيقة، حتى أنها اضطرت أن تضحك.. وانقشعت غمامة مع ضحكتها وأدركت سخفها.. إن حساسيتها بالإهانة غير منطقي أبداً وقالت:

- بالطبع لا.. لكنني لا أحب أن يعاملني أحد وكأنني طفلة غير مسؤولة.. فأنا على أي حال أقارب العشرين وأكسب معيشتي ومن حقي أن يكون لي أفكاري الخاصة.

وافق بوقار:

- كل هذا صحيح.

وأكمل معترفاً:

- لقد كنت وقحاً معك.. وأرجو عفوك.. لكن هل أنت حقاً تقاربين العشرين؟

- أجل.. وكم كنت تعتقد عمري؟

قال بخجل:

ـ ليس من حسن الأخلاق التكهن بعمر سيدة.. لكن لديك نوعية ا
عمر لها جنيفر كجنية ليست من البشر تقريباً..

وقال شعراً: «لا العمر أذبلها ولا الزي غيّر من تنوعها اللامتناهي».

وكان هذا استرضاء جيداً لها.. ومثيراً أكثر من لو أنه قال إنها جميلة أو طيبة.

قالت بخبث:

ـ أترى.. أنا متطلبة.

ـ حقاً؟ تبدين فاتنة في هذه اللحظات.. لقد جئت إلى المكان المناسب، جنيتي.. ففي الجبال هنا، لا زال الناس يؤمنون بالسحر وبوجود المخلوقات الغريبة. يجب أن ننطلق الآن. إلا إذا كان بإمكانك إلقاء تعويذة تنقلنا إلى «بيلزشاير» دون أي جهد.

عادت إليها روح المرح:

ـ أخشى أن يكون هذا خارج قدراتي.

ـ إذن، يا جنيتي الطيبة، هل تغفرين تطفل كائن بشري زائل وتأتين معه إلى السيارة؟

ترددت، تشعر بلذة الانتصار.. وارتفعت عيناه لتلتقيا بعينيها.. ل
تجد مرحاً في نظرته رغم لهجته المتواضعة.. وأكمل:

ـ سيكون هذا ودياً أكثر.

ـ هذا صحيح.. لكن إن قمت بأشياء لا تروق لك.. فأرجوك دلني عليها بدلاً من الوقاحة.

مرت على وجهه لمحة غضب سريعة:

ـ ألم يضربك والدك يوماً على قفاك؟

ـ ألم أقل لك إنني لا أعرفه.. لقد مات وأنا في اللفة.

ـ أنا آسف جنيفر.. لكن يجب ألا تحاولي إثارتي.. هاتي.. أعطني حقيبتك.. سيكون الوصول إليها أسهل في صندوق السيارة.. والآن دعي



نطلق.

أحست جنيفر بوخز ضمير وهو يقفل الباب.. لقد أزعجته بقولها الخشن.. لكنها ستزيد الأمور سوءاً لو حاولت الاعتذار.

امتدت الأراضي خلفهما والسيارة تتسلق السفح الطويل.. كان سور حجري يخفي ما حولهما تماماً.. لكنها كانت متأكدة أن جغرافية هذه المنطقة ستبقى محفورة في رأسها.. مرا بصخرة مستقيمة إلى الأعلى.. وعليها كتابات.. لقد قطعا الحدود، وها هما أخيراً في اسكتلندة.

بدا أن هذه أرض خالية بمراعٍ خضراء وتلال مستديرة، تقطعها طريق للحواجز لها..

هبطت الطريق بهما إلى وادٍ.. وظهر هناك المزيد من التلال والقمم المنتشرة شرقاً وغرباً.. بعضها مرتفع جداً، شديد الانحدار ومزدان بشقائق النعمان القرمزية.. بدت الأرض هنا جبلية بالنسبة لجنيفر المعتادة على أرض «نورفولك» المنبسطة.. وعبرت عن دهشتها:

ـ ظننت أن الأراضي المنخفضة «الولاندز» ستكون مسطحة.

ـ ليس هناك أرض مسطحة في اسكتلندة.. الحقول الحقيقية الوحيدة هي في وادي «الميدلاند».. تلك الفسحة المتسعة هي أراضي «كارس».. لكن هذه لا تشبه «الهايلاندز» بشيء.

ـ إذا كانت كلها بلاد واحدة.. فلمَ الاختلاف؟

ـ السبب هو تشكيل الصخور... الصخور القاسية المقاومة لعوامل التعرية مثل الغرانيت والصوان هي التي تعطي «الهايلاندز» خطوطها الدراماتيكية. الصخور الرملية الألين لهذه التلال، كيفتها عوامل الطبيعة إلى أشكال أرق، وتحولت إلى تربة عميقة صالحة كمراعي للأغنام.. ولن تجدي مثل هذه الخضرة الندية في تلال «الهايلاندز».. بل ستجدين أنها قاسية بنية ورمادية، وزرقاء.

نظرت إلى ما حولها:

ـ لكن هذا جميل جداً.

- أوه أجل.. جميل.. لكن من يريد الجمال لوحده؟
- أنت لا تريده على ما يبدو.. أعتقد أنك تفضل الجبال المرتفعة والبحيرات التي لا قعر لها.. و.. والنساء الجميلات.
- أوه.. هيا الآن جنيتي.. جبال اسكتلندة العالية رائعة الجمال.. مع أن جبال «الألب» تطغى عليها.. وإشارتك إلى النساء تبدو خارج الموضوع في مثل حالتي.. أنا أبحث عما هو أكثر من الجمال في المرأة.
- أجل.. فأنا واثقة أن من الصعب إرضاءك.
- لماذا تقولين هذا؟
وبدت عليه دهشة حقيقية، فسارعت تقول بخفة:
- كانت ملاحظة عامة.
- اسمعي أنت.. جنيفر الصغيرة.. أنت مولعة جداً بالملاحظات العامة.. وهي ليست عادة صحيحة.
- وأنت مولع جداً بالتعليق على أخطائي.
- لا أقصد أن أفعل ذلك.. لا أحد كامل. ولقد قلت لك إنك فتاة لطيفة.
فتاة لطيفة! أيمكن أن يكون أي وصف أنفه من هذا؟
- لكنك قلت إنني «جنية» فكيف تكون الجنية فتاة طيبة؟
- هذه الجنية هي فعلاً طيبة.
توقفا في بلدة صغيرة لتناول القهوة.. وقال نشايس وهما يشربانها:
- أرجو أن لا تحملي ضغينة عليّ بسبب ليلة أمس، جنيفر.. لقد تصرفت.. دون مراعاة لمشاعرك.. وبصراحة، كنت قلقاً من وجهة النظر التي أبديتها وأردت أن أظهر لك كيف يمكن لبعض الرجال أن يتصرفوا.. حتى مع طفلة لا خبرة لها.
- عرفت هذا الآن.. مع ذلك أجد صعوبة في أن أسامحك على إخافتك لي.. أنا ضيفة عليك.. وأظن أن ما فعلته كان خسيساً.. وليس ما أتوقعه من حامل.. ألقاب.



- حامل إشارات النبل.. أليس هناك شيء أفعله لأعوض عما فعلت؟
خطرت ببالها فكرة، وقالت بحزم:
- بلى.. لكنني واثقة أنك لن تقبل.. إنه طلب صعب.
- وهل هو غير معقول إلى هذا الحد؟
كان على وجهه تعبير غريب نصفه تأنيب ونصفه غضب.. لكنها ظلت مصممة على هدفها ولم تتأثر به.
- لست أدري ما إذا كنت أجرؤ على طلبه.
- أعدك بأن أنفذه لك.
- أسامحك على أي شيء لو تركتني أقود سيارتك.
رأت الذعر على وجهه فضحكت:
- أنا حقاً سائقة جيدة.. وأنا متشوقة لقيادتها منذ رأيتها.
التوى فمه:
- أنت فعلاً فتاة مميزة. كنت مستعداً لأي شيء ما عدا هذا.. حتى لطلب أن أجعل منك امرأة شريفة.
- لكنني امرأة شريفة.. فأنت لم.. أعني..
وتلعثمت بالكلمات.
- لا.. لكن بما أنني أخذت لنفسي دور المعلم الناصح فأنا مدين لك بتعويض ما.. وفكرت أنه ربما تكون.. محاضرتي أيقظت فيك مخاوف على سمعتك، وتريدينني أن أصحح وضعاً غير مريح.
نظرت إليه متسعة العينين مع بعض الارتباك.. لم تخطر ببالها أي فكرة عن سمعتها مع أنها تفكر بالأمر الآن، وهي لم تفكر أن قضاء يومين وليلة مع رجل أمر يثير الانتقاد من الناس.. وشهقت:
- لا يمكن أن تعني أنك ظننتني سأطلب منك أن.. تتزوجني؟..
وبدت إنك تعدني بأن تنفذ ما أريد.
التوى فمه مجدداً:
- تهور شهم.. لكن بما أنك أرحتني من المأزق فأعتقد أن عليّ

الموافقة على بديلك الأكثر خطورة.

ضحكت جنيفر مرة أخرى:

ـ أعتقد أنك أنت المميز.. أتفضل أن تصبح خطيبي على أن تتركني أقود سيارتك؟

ـ يعرض الأمر الأول حريتي للخطر.. لكن الآخر قد يكلفني حياتي.

ـ لست سيئة إلى هذه الدرجة! أنت فقط مثل بقية الرجال.. لا يمكنهم التصديق أو الإيمان بكفاءة المرأة في القيادة.

ـ أنا شخصياً أكره أن يقود سيارتي أحد وأنا فيها.. لكنني لن أتراجع في كلمتي.. هل قدت من قبل سيارة من طرازها؟

ـ لا.. لقد لاحظت أن تغيير السرعة مختلف لكنني سرعان ما أعتاد عليها.

قال متجهماً:

ـ هذا إذا لم نسقط في النهر أولاً.. وهل رخصة قيادتك معك؟

ـ أجل.. في الواقع أحملها دائماً في حال أتيحت لي فرصة لقيادة سيارة.

ـ لا تقولي لي إنّ السيد سيمونز يتركك منفلتة بين سياراته الجديدة؟

ـ بالطبع لا.. لكن سيارات الزبائن يجب أن تجرّب بعد التصليح.. وحين يكون مشغولاً جداً ولا وقت لديه للقيام بهذا، يترك لي المهمة.

دست يدها في جيبها وأخرجت كتيباً: هذه هي.

أخذها منها ولاحظ عدم وجود ملاحظات عليها.

ـ إنه سجل نظيف.

وأعادها إليها.

ـ لكنني أعتقد أنك لست من النوع الذي يلطخ سجله.

ردت ممازحة:

ـ أنا نقية كالثلج المتساقط لتوه.

ـ وهذا شيء مميز هذه الأيام.. وهل تخجلين من هذا؟



ـ لا.. لكن الكثير من الفتيات يعتقدن أن العفة سببها نقص الفرص.

ـ كل هذا هراء.. إبقي كما أنت جنيفر.

عادت بارتياح إلى الموضوع المشوق أكثر، السيارات:

ـ أنا أوفر المال لشراء سيارة خاصة لي.. وسيكون اليوم الذي ستشتري فيه سيارتي أسعد يوم في حياتي.

ـ حسناً.. سمعت عن نساء مخلصات لدين أو لمهنة لكنني لم أسمع مخلصة لسيارة من قبل.

نهض عن مقعده:

ـ دعينا ننهي هذه الورطة.

عادا إلى موقف السيارات، وكانت جنيفر تكاد تقفز في سيرها تلهفاً لتنفيذ طموحها قبل أن يعيد التفكير بقراره..

فك تشايس المقطورة، قائلاً إن جرها بالسيارة يجعل المقود أكثر صعوبة.. وبما أن ما تبقى من الطريق ستكون طرقات ملتوية.. فقد اقترح العودة إلى الطريق المستقيمة التي قطعاها لتوهما.. فهو لن يسمح لها بالقيادة عبر البلدة.. وهذا ما أزعجها قليلاً. فلينتظر إلى أن تضع يدها على ذلك المقود.. وستريه! توقف بعد أن أصبحت شوارع البلدة وبيوتها خلفهما، وتبادلا معها المقاعد.

تقدمت بحذر في البداية إلى أن اعتادت على الغيار الآلي، والإحساس بالسيارة. ثم داست دواسة الوقود، وسمعت بمرح أنفاس تشايس العميقة. أحست بالاهتياج لتجاوب السيارة القوية معها وقد تحررت من حملها الثقيل، وبدا أن السيارة تشارك جنيفر اهتياجها فقفزت إلى الأمام.. وارتفع مؤشر السرعة إلى سبعين ميلاً.. لكن تشايس لم يقل شيئاً.. فما إن اندفعت حتى لاذ بالصمت دون أي انتقاد. أخيراً قال لها إن عليهما العودة إلى المقطورة إذا كانا ينويان الوصول إلى «روز كوتاج» قبل الغداء.

استدارت إلى الخلف بطريقة صحيحة.. ولم تكن ترغب في العودة إلى المقعد الآخر، وأحست بسعادة أكبر مع دخولهما «جيدبورو» دون أن

يقترح تشايس استعادة المقود.. وشقت طريقها بحذر عبر زحام السير
ودخلت موقف السيارات لتضع السيارة في الاتجاه الصحيح لإعادة ر
المقطورة.

خرج كلاهما كل من جهته.. ونظر إليها باستحسان من فوق سقف
السيارة.

ـ أحسنت أيتها الجنية.

وأخرج منديله يمسح العرق عن جبينه مكملاً:

ـ مع أن قلبي كان سيتوقف عن الخفقان أكثر من مرة، إلا أنني سرعا
ما أدركت أن نوتري لا داع له.

ضحكت جنيفر منتصرة وبدت مبتهجة جداً، عيناها تلمعان، خدا
محمران، وتغير تعبير وجه تشايس إلى الإعجاب.

ـ أعتقد أنني الآن آسف لأنك لم تقبلي بالبديل.

ـ لكنك كنت تمزح طبعاً.

ـ أوليس هذا سيئاً جداً؟ لماذا تعتبرين أن عرضي الشهم والذي لم يك
لدي الفرصة لأن أتقدم به.. هو مزحة؟

ـ هذه هي الطريقة الوحيدة التي استطعت أن أفهم عرضك بها.. ا
ألم تكن مرتاحاً حين «أرحتك من المأزق» كما وصفت الأمر؟

ـ أخشى أن أكون قد استخدمت تعبيراً سيئاً.. لكنني كنت مندهشاً
وأنا الآن.. أفكر بأن أجعلك تأخذين قولي على محمد الجد.

ـ وهل تظن أنك قادر على هذا؟

رد بكل ثقة:

ـ أجل.. لو حاولت جاهداً.

تحركت منملمة محرجة من نظرته المتشددة.. وقالت بأدب:

ـ أكره أن أسبب لك إزعاجاً.

ضحك:

ـ أوه.. يا جنيتي.. يا جنيتي.. أنت فعلاً ساذجة جداً.. أم إ



حاولين المزاح معي؟ ستكون ملاحقة جنية وإلقاء القبض عليها تجربة غير
عتادة

ردت بحدة:

ـ أستطيع القول.. إنك.. مبتهج قليلاً.. لأنني لم أصب سيارتك
لخدش.

ـ لا شأن لهذا بالسيارة.. مع أنه يجب أن يكون حافزاً لإقناعك بقبول
طلبي.

أجبرت نفسها على الضحك:

ـ هذه رشوة وإفساد. فأنت لن يكون رأيك بي جيداً لو.. أنني..
نت عرضك لمجرد أن أكسب سيارة.

ـ أرجو أن يكون هناك حوافز أخرى.. وبهذا نتشارك السيارة مع
شياء أخرى، بما فيها عائلتي وشعارات النبل التي لم أمتلكها بعد.

ـ تشايس.. هل تظن أننا سنلتقي مرة أخرى؟

ـ بالطبع، فعلي متابعة تثقيفك في مسائل شارات النبل، وأشياء
خرى.. هل تتعمدين الغباء جنيفر؟

ـ أنا في ضباب تام.. بالنسبة لك ولدوافعك.

ابتعدت عنه قلقة من جوابه المراوغ.. وسألت ببرود:

ـ أليس من الأفضل أن نتابع الطريق؟ يكاد النهار أن ينتصف.

نظر إلى وجهها المحتجب عنه نظرة طويلة متسائلة.. ثم هز كتفيه
واتجه ليربط المقطورة قائلاً:

ـ الفارس الجيد لا يستعجل في قطع الحواجز أمامه.

بدا لها كلامه دون معنى، تلاشى اللون عن وجه جنيفر وتحول وجهها
السهل إلى العبوس وهما يستأنفان سيرهما.. لم يعد هناك مسافة طويلة
أمامهما وسيفترقان بعدها.. لم تكن واثقة إذا كان يعني حقاً رغبته في
متابعة تعارفهما أم لا، لكن لو أنه أراده فيعني هذا لقاءه بكلير.. وهي
تعرف أنه حين يرى أختها، لن يعود لها أمل في الاحتفاظ ولو ببصيص من

اهتمامه. وستتلهف كلير لركوب سيارته الفاخرة، لكنها لن ترغب في قيادتها.. ولديها كل الصفات الناعمة التي تروق لرجل مليء بالرجولة مثل تشايس. فواضح أنه يميل إلى المرأة الأنثى، وما من جسد قد يبدو أكثر أنوثة وأجمل من جسد كلير.

هناك أمل واحد.. أن تكون كلير منصبة على اصطياد كليف هارغريفز، وهكذا تترك تشايس وشأنه.. وبهذا سيسعى إلى إرضاء كرامته المجروحة معها. لكن كي يحدث هذا يجب أن يكون كليف فاتناً بشكل استثنائي.. ولا يمكنها أن تتصور وجود رجل أكثر فتنة من ابن خاله.

* * *

فراشة الحب
www.liilas.com



## ٥ ـ بداية النهاية

لم يصلا إلى «روزكوتاج» في وقت الغداء.. قال تشايس إن تجربتها لسيارة أختهما لذا سيتوقفان في «ميلروز» لتناول وجبة طعام، وسيريها كنيسة «الآبي» هناك.

جاء هذا التأخير في توقيته المناسب تماماً. فقد كانت تعد الدقائق المتبقية قبل أن يفترقا.. وانتعشت روحها لفكرة قضاء عدة ساعات أخرى برفقته وعاد إليها معظم نشاطها.

سألت تحدثه:

ـ أين ستقيم في إدنبره؟

ـ في المقطورة طبعاً.. لقد حجزت مكاناً في موقع تخييم فلا داعي لإضاعة المال في الفنادق، ولدي منزلي الخاص فوق الدواليب.

ـ وماذا عن الطعام وما إلى ذلك؟ هل ستقوم بهذه الأعمال بنفسك؟

ـ ولمَ لا؟ وهل ظهر لك أنني غير قادر؟ أنتن النساء تتصورن أن لا غنى لراحة الرجل عنكن.. إنني قادر حتى على رتو جواربي.

كانت فكرة إمساكه بإبرة وخيط غير معقولة لدرجة أنها انفجرت ضاحكة.. فسألها:

ـ وما هو المضحك؟ يفعل رجال البحرية هذا ويغسلون ثيابهم كذلك.

ـ لكن هل كنت يوماً في البحرية؟

ـ في الواقع.. انتسبت إلى الكلية العسكرية، لكنني لم أكمل

الطريق . . وتعلمت خلال الخدمة أن أبقي الأشياء نظيفة مرتبة.

قالت دون تفكير:

ـ سيكون لزوجتك حياة سهلة!

ـ لا تخدعي نفسك . . سيكون الاهتمام بالمنزل من مسؤوليتها. فأنا قديم الطراز، جنيني . . وأنوي أن أكون سعيداً في بيتي . . والسيد لا يقوم بأي عمل.

تذكرت جنيفر أقوال فرانسيس پالمر، وسألت بسخط:

ـ وهل ستعاملها وكأنها . . خادمة.

ـ بكل تأكيد لا . . بل سأوليها كل كياسة واحترام، وسيكون لها مركز مميز . . لكن في منزلها.

ـ إذن لن تسمح بأن يكون لها عمل خاص بها؟

ـ ولماذا تحتاجه؟ فهي ستمضي أوقاتها في العناية بالمنزل، وتربية الأولاد.

نظر إليها جانبياً:

ـ لقد سبق وحذرتك من هذا.

بالرغم من أفكار فرانسيس پالمر، لم تستطع جنيفر تصور عمل مبهج أكثر من إدارة منزل تشايس وتربية أولاده . . لكن زوجته لن تدير منزلاً فقط . . فلديه مركز اجتماعي يجب أن يحافظ عليه حين يستعيد إرثه النبيل. وتنهدت طويلاً.

سألها:

ـ وهل يبدو لك هذا مملاً جداً؟ وهل تبتعد أحلامك كثيراً عن الجو المنزلي؟

ـ لم أكن أفكر بهذا.

ـ إذن هل لي أن أسأل ما سبب هذه التنهيدة العميقة؟

ـ لا شيء . . أعتقد أنني متعبة قليلاً.

ـ ستشعرين بحال أفضل بعد الغداء.



يبدو أن الطعام هو وصفة تشايس لكل الأمراض لكنه لم يستطع إزاحة الألم الذي تشعر به في قلبها، وهي تدرك أنها غير مناسبة أبداً لدور الزوجة . . ما كان يجب أن تفكر بأمر كهذا . . لا شك أنه واثق من أنها لن تأخذ كلامه على محمل الجد . . لقد تسبب بالذعر لها ليلة أمس، وجعله هذا متأكد أنها تكرهه . . ثم لاحقاً أزال تغيير تصرفاتها هذه الأوهام عنه، لكن ما زال يجعله يشك بأنها منجذبة إليه.

وبصعوبة . . كبتت تنهيدة أخرى.

دخلا بلدة «ميلروز» الصغيرة الرمادية الحجارة، الواقعة على ضفاف نهر «تويد» . . تناولا الطعام في مقهى صغير بعد أن اختارا وجبة بسيطة . . وارتاحت جنيفر لأنه لم يقترح فندقاً للغداء فقد هجرتها شهيتها، وكانت سلطة الجبن التي اختارتها كافية لحاجتها.

قطعا مسافة قصيرة ووصلا إلى «الآبي»، أو الكنيسة المدمرة . . التي كانت وسط أرض تتألق بمساكب الزهور . . أحجار ما تبقى من الكنيسة حمراء صدئة . . العشب المحيط بها أخضر زمردي. كان جزء من الكنيسة لا زال قائماً . . وتقدما إلى هيكل النافذة الشرقية الكبيرة التي تقع فوق الصليب الكبير المرتفع.

قال تشايس:

ـ شيد البناء الأصلي «دايفد الأول» كانت أمه القديسة مارغريت، أميرة سكوتية . .

دس تشايس يده في ذراعها وسارا جنباً إلى جنب، وبدا لها من الغرابة أن يصلا إلى هذه الدرجة من التناغم . . بعد صدام ليلة أمس وهذا الصباح.

قال تشايس عند وصولهما إلى مكان المطابخ:

ـ ما زال هناك الكثير من سمك «الترويت» في نهر «التويد» . . ولا شك أنه كان كثيراً جداً في الأيام القديمة . .

ظهرت أمامها بوابة حديدية مفتوحة توصل إلى الحدائق المليئة بأزهار الصيف المتنوعة . . قادتهما بضع درجات نزولاً إلى الحديقة، ودون انتباه

إلى طريقها، تعثرت جنيفر وتمسكت بتشايس بيدها الأخرى.. التفت ذراعه الأخرى حولها تشدها إلى صدره.. وتمتم في أذنها:

ـ عانقتك من قبل بغضب.. لكن هذا ليسجل نهاية يوم رائع.

كان ضغط عناقه هذه المرة طويلاً. ولم ينتبها إلى واقع أنهما أصبحا عرضة لتسلية بعض الزوار في المكان إلا بعد سماعها لضحكات مكبوتة، فسارعت جنيفر إلى تخليص نفسها من عناقه وابتسم لها تشايس مؤنباً.

ـ هناك مكان وزمان لكل شيء.. ومن الواضح أن هذا مكان غير مناسب.. لقد نسيت أننا لسنا لوحدنا.

ولأن مشاعرها كانت مرتبكة ردت بخشونة:

ـ تجعلني موضع سخرية!

نظر عبر البوابة إلى امرأتين في منتصف العمر تنظران إليهما بابتسام.. ورد عليهما الابتسامة، ثم أمسك ذراع جنيفر مجدداً وسار بها مبتعداً:

ـ هذا ما سيهيج يومهما.

ـ لست أرى سبباً يدعوك إلى إبهاجهما على حسابي.

ـ لم نفعل شيئاً نخجل به.. فلمَ أنت منزعجة؟

لم تستطع أن تشرح له أن ما كان بالنسبة إليه دعابة عفوية ومجرد اختتام ليوم لطيف معاً، كان بالنسبة لها تجربة جديدة.. تحريك آخر للمشاعر التي أثارها فيها ليلة أمس.. وهل بالإمكان أن يحصل هذا ليلة أمس فقط؟ إنها لا تريد أن تقع في حبه، فغريزتها وتعقلها يقولان لها إنها بهذا ستسبب ألم القلب لنفسها.. وهي واثقة أن لا نوايا جدية وراء مزاحه.. إنه ينظر إليها كطفلة شيطانة يحب ممازحتها ومداعبتها حسب مزاجه، لكنه لم يرها أبداً كامرأة ناضجة.

قالت:

ـ لست منزعجة.. الأمر فقط أنك تقوم بأشياء لا أتوقعها.

ـ ألا تتصرفين أبداً باندفاع متهور؟

ـ أوه.. لكنك تقول لي دائماً إنني طفلة.. لذا أتوقع منك تصرفات



ناضج.

ـ أنا لست ناسكاً.. وما زلت قادراً على شيء من.. الحماقة.

ـ هذا ما يبدو.. هل أعجبك تشايس؟

صاح بعنف أجفلها:

ـ تعجبيتي؟

صمت لحظات يتفرس فيها، ثم قال ضاحكاً:

ـ أجدك مقبولة.. ولست مستعجلاً للخلاص منك.

كانت تأمل بسماع شيء إيجابي أكثر، لكنه بدا مصمماً على مراوغتها.. انتزعت بخيبة أمل ذراعها من ذراعه، وقالت ببرود:

ـ أعتقد أن علينا متابعة السفر.. ستظن عائلتي أنني ضعت.

نظر إلى ساعته:

ـ آه.. أخشى أن تكوني على حق.. عليّ أن أصل بما معي قبل حلول الظلام.. فالوقت يمضي بسرعة في عبث كهذا.

عبث؟ يا لها من كلمة قديمة الطراز.. لكنها تصف بالضبط تصرفاته، إنه فعلاً كان يعبث معها طوال النهار.. ربما لأنه يجدها غير محنكة وحماسها مثيراً للتسلية بعد صحبة النساء الأنضج التي لا شك أنه معتاد عليها.. رافقتها هذه الفكرة وهما يتحركان نحو المخرج، فسألت:

ـ هل لديك أصدقاء كثر في إدنبره؟

ـ ليس الكثير.. أنا في انكلترا منذ سنوات طويلة، وانقطعت اتصالاتي بالموجودين.. لكن هناك صديق قديم للعائلة سيكون مسروراً بعودتي.. الاسكتلنديون شعب مضياف جداً.

ـ إذن ستنعم بكثير من الرفقة؟

ـ سأتلقى على الأرجح دعوات أكثر مما أستطيع أن أقبل.

قالت بمرارة:

ـ أجل.. الشبان غير المرتبطين مطلوبون دائماً.

ـ لكنني مرتبط.

هبط قلبها إلى ما بين قدميها:

ـ أنا.. لم أكن أعرف..

ـ ستعرفين.. في الوقت المناسب.

هذا ما وضع حداً لنصف الآمال التي بدأت تفكر بها والتي بنتها على أساس كلامه الإيحائي. إذن فهو كان يمازحها طوال الوقت.. ولم تعد تخشى منافسة من كلير، فتشايس ماك كونال مرتبط.. وتصاعدت الكلمات الغاضبة إلى شفتيها لكنها كبتتها.. فلن يوصلها الانتقاد إلى أي مكان وسيفسد فقط هذه اللحظات من اليوم الرائع.

جلست إلى جانبه في السيارة هادئة ومكبوتة.. بعد وقت قليل، أزاح نظره عن الطريق أمامه ونظر إليها باستغراب.. ولدى اعترافها بأنها متعبة من يومهما الطويل، تابع مسيرته بصمت.

وأصبحت الطريق ضيقة تتلوى بين تلال مرتفعة خضراء، وتنتشر الخراف على أطرافها كتل متراصة من الصوف الأبيض. لكن جنيفر لم تكن ترى شيئاً مما حولها.. فقد كانت تتصارع مع الألم المتزايد في قلبها.. وبما أنها لم تستطع أخذ أي شيء من كلامه على محمل الجد، فهي تشك كثيراً في أن تراه مجدداً.

وصلا أخيراً إلى مجموعة منازل رمادية مبنية حول جسر حجري يعبر الساقية، وترتفع في الأفق البعيد تلال «بتلاند» التي تغطيها بضع سحب ضبابية.. وهناك أوقف تشايس السيارة.

أشار إلى ممر ضيق بين الأبنية:

ـ «روز كوتاج» موجود في أعلى ذلك الطريق.. إنه أول باب إلى اليسار.. واعذريني إذا لم أرافقك إلى هناك.. عليّ أن أذهب.

مد يده ليأخذ حقيبتها من المقعد الخلفي.. فتوسلت إليه وهي تأخذ منه الحقيبة:

ـ أرجوك.. لا تزعج نفسك بالخروج.. فهي ليست ثقيلة. وداعاً تشايس.. وشكراً على كل شيء.



ـ كان من دواعي سروري، جنيتي.. سأراك فيما بعد.

أغلقت باب السيارة وابتعدت، وهي تشعر بأنها تبعد نفسها عن أهم شيء في حياتها.. لقد كان مستعجلاً بالفعل، ولم ينتظر ليراها تدخل المنزل بل لوح لها بيده وانطلق.. فوقفت تراقب السيارة، ومقطورتها تترنح خلفها إلى أن ابتعدت عن الأنظار.

أراك فيما بعد.. جملة عفوية، قد تعني أي شيء أو لا شيء.. مجرد محاولة لجعل الفراق يبدو أقل ألماً.. تنهدت بألم، وشقت طريقها نحو «روزكوتاج».

كانت السيدة غرابون وكلير، قد وصلتا في الليلة السابقة.. ولعدم وجود مفتاح معها، رنت جنيفر الباب وشاهدت سيارة رياضية صفراء متوقفة في الممر المرتفع. كانت سيارة منخفضة، بمقعدين، مع مكان لجلوس شخص واحد بشكل جانبي في المؤخرة..

فتحت ليزا غرابون الباب.. وصاحت:

ـ ها أنت أخيراً! بدأنا نتساءل ما إذا كنت قد تعرضت لحادث.

وابتعدت عن الباب تاركة جنيفر تمر إلى الردهة الصغيرة.. كان تصميم «روزكوتاج» بسيطاً جداً. غرفة جلوس إلى اليسار، الدرج في الواجهة تماماً، غرفة طعام يفصلها باب جرّار عن مطبخ صغير إلى اليمين. وفي الأعلى اكتشفت غرفتي نوم وحمام.

وضعت حقيبتها من يدها وقالت تشرح:

ـ يأخذ السفر بمقطورة زمناً طويلاً.

راحت أمها تنظر في الممر خلفها:

ـ أين لينش؟ ألا يرغب في شيء ينعشه؟

أجفلت جنيفر، فقد نسيت أنها طلبت من تشايس إبلاغ عمته بعدم إخبار أسرتها أنها غيرت المرافق.. وردت بمراوغة:

ـ لقد تابعت المقطورة طريقها.. يجب أن تصل إلى إدنبره قبل حلول الليل.

وهذا ليس كذباً.

- أوه.. فهمت.. حسناً ادخلي.. السيد هارغريفز هنا.

ثم همست:

- أظن أن كلير قد أحرزت نصراً.

دفعت الباب تفتحه وتقول:

- لقد وصلت جنيفر أخيراً.

صاحت كلير بابتهاج:

- مرحباً جنيفر.. وصلت في الوقت المناسب لطهو العشاء.

استدارت نحو الشاب الذي كانت تتحدث إليه:

- شقيقتي ماهرة في المطبخ.. إنها ناجحة فيه أكثر مني. هذا كليف هارغريفز جيني.. كليف هذه أختي جنيفر.

لم يكن لكليف أدنى شبه بابن خاله.. متوسط الطول أحمر الشعر ممشط إلى الخلف عن جبهة عالية، له عينان زرقاوان شاحبتان ورموش شقراء بلون الرمل. أنف كبير، وذقن ضعيفة.. وبدا لها أصغر سناً من نشايس الذي تعتقد أنه يبلغ الثلاثين.. كان أنيقاً جداً، ملابسه مرتبة، ببذلة سترتها عاجية فوق قميص أزرق.. ووقف مع دخول جنيفر ومد لها يداً بيضاء معتنى بها جيداً.

- أهلاً بك في اسكتلندة جنيفر.. هل يمكن أن أناديك هكذا؟ نحن الشبان لا نطيق الرسميات هذه الأيام، أليس كذلك؟

صافحت يده:

- بالطبع لا.. إذن سأدعوك كليف؟

- أرجوك، وسيكون لي الشرف.

انحنى لها قليلاً، لكن عينيه كانتا شاردتين نحو كلير.. التي قالت له بفتنة:

- كنت مترددة في دعوتك للعشاء وأنا أعرف فشلي في تحضير الطعام.. لكن مع وصول جنيفر.. سأدعوك. أنت لن تمانعي جيني..



أليس كذلك؟ لقد جاء لنا كليف ببعض السمك.. لكنني لا أعرف أبداً كيف أتعامل معها.

أجفلت جنيفر في داخلها لذكر السمك الذي أكلت منه مع نشايس في الليلة السابقة.. لكنها قالت بشجاعة:

- اتركيها لي.. دعيني فقط أغتسل وأغير ثيابي أولاً.. لقد أمضيت يوماً رحلة طويلة كما تعلمين.

- أجل.. طبعاً.. غرفة نومنا إلى اليمين.. وهناك الكثير من الماء.

- في هذه الحالة سأستحم.

نادتها السيدة غرايون:

- لا تتأخري كثيراً.

كانت غرفة النوم مليئة بأغراض كلير.. وكان بإمكان جنيفر أن تتقفى أثر يومها من الثياب المرمية بإهمال، من الروب الصباحي إلى البذلة والبنطلون ثم المعطف لبعد الظهر.. وضبت جنيفر كل شيء بسرعة داخل خزانة كبيرة قبل أن تفتح حقيبتها وتفرغ ما فيها.. منذ طفولتها، كانت أمها توضب أغراض كلير، إلى أن كبرت جنيفر وأخذت المهمة عنها.

تمتعت جنيفر بحمام ساخن.. ثم ارتدت فستاناً بسيطاً، ونزلت لتهتم بأمر السمك.

أثناء العشاء، بدا من الواضح أن كليف قد أصبح مفتوناً.. لم يكن قادراً على انتزاع عينيه عن كلير.. بينما كانت ليزا تتهلل بالرضى..

قال لها:

- لا أرى ضرورة لاستئجاركن سيارة.. فسيارتي تحت تصرفكم.

سألته السيدة غرايون بارتياب:

- أوليس لديك عمل؟

- التجارة فاترة هذه الأوقات.. وأستطيع أن آخذ فرصة وأنتن هنا لأريكن المكان.

تذكرت جنيفر أن سيارته لا تتسع سوى لثلاثة، والمقعد الخلفي غير مريح أبداً.. فاعترضت:

- سيكون هذا غير مناسب أبداً.. نحن نحب أن نكون مستقلات.

قالت كلير:

- ليس هناك مكان نذهب إليه سوى «بيلبز» وهي مكان صغير، وإدنبره.. ويوجد باصات إلى كلتي البلدتين.

كبتت جنيفر تصاعد سخطها.. كلير وأمها ستستغلان عرض كليف، وستضطر هي لاستخدام الباص.. بينما كانت تتوقع وجود سيارة مستأجرة، وهو أكثر ما جذبها إلى هذه العطلة.

قالت كلير وهي تقطع سمكتها بأناقة:

- هذا السمك لذيذ كليف.. هل اصطدته بنفسك؟

- لا.. فأنا لا أهتم بصيد السمك. أنا أترك هذا لابن خالي تشايس.. في الواقع قد يصل إلى هنا بعد يوم أو اثنين.. نحن لم نره منذ وقت طويل.. لكن أمي تحبه كثيراً.. لذا لا شك أنه سيزورنا.. أنا شخصياً لطالما وجدته صعب المراس.. وما من شيء مشترك بيننا.. لقد حصل أخيراً على بعض الأملاك..

رأت جنيفر من زاوية عينها تسارع اهتمام أمها:

- من قبل عم لأبيه.. إنهم عشيرة صلبة عنيدة، آل ماك كونال.. لا يبدو أبداً أنهم يدركون أن العالم تغير كثيراً منذ كان رئيس القبيلة يحكم كل شيء.. في الواقع، أعتقد أنه سيكون وريث رئاسة عشيرة كونال ووادي تلك العشيرة ما إن يسجل طلبه.

رفعت كلير عينين مستديرتين:

- أتعني أنه سيحمل لقباً؟

- لورد أوف غلين كونال.. أو شيء مماثل.. لكن لا أحد يستخدم هذه الألقاب اليوم.. هذا عصر الديموقراطية.

ابتسمت كلير لتظهر غمازتين فاتنتين:



- كم أحب أن ألتقي بزعيم قبيلة «هايلاندر» حقيقي.

بدا كليف غاضباً:

- إنه لا يختلف عني، وليس أكثر ثراء.. إنه حتى لا يرتدي الزي الإسكتلندي إلا وهو بين أهل عشيرته.. «غلين كونال» ليس سوى واد صغير في الجبال، ثم إن تشايس لا يحتاج إلى النساء.. على الأقل ليس إلى الفتيات اللطيفات.. إنه يخشى من الارتباط.

كادت جنيفر تصيح: لكن إحداهن ربطته! واضح أن كليف يجهل خطوبة تشايس.. لكنه لم يقل إنه خاطب، الكلمة التي استخدمها كان «مرتبط»، وما قاله كليف يفسر ابتعاده عنها في المقطورة.. لقد توقع أن تكون سهلة المنال وتراجع عند اكتشافه لعفتها.. لكن كم هو منافق بادعائه الإعجاب بالعفة، في حين أنه مثله مثل كل الرجال لا يهتم سوى بالمرأة الجاهزة.

ارتعبت لرؤية عيني كلير تلمعان.. فوصف كليف الذي قصد منه تشويه سمعة ابن خاله أيقظ التحدي.. ولم يبقَ أمام جنيفر سوى أن تصلي كيلا يأتي تشايس إلى «روزكوتاج».

جاءت ليديا هارغريفز في الصباح التالي لزيارتهن. وكانت صادقة في وعدها، فقد حصلت لهن على إذن إيجار سيارة فولزواكن، وبسعر معقول جداً.. وقبلت ليزا بها. فقد خطر لها أن كلير وكليف، لن يرغبا في أن يرافقهما أحد في نزهاتهما، ولا بد أن كليف سيضطر أدباً، أن يطلب منها أو من جنيفر المجيء معهما إذا لم يكن هناك وسيلة نقل أخرى.

كانت ليديا تحمل شبهاً كبيراً بابن أخيها.. كان لها ذات العينين الرماديتين المحاطتين بالأسود والأنف المستقيم.. ونظرت إلى جنيفر بحيرة، حتى إن الفتاة تساءلت عما قاله لها تشايس عبر الهاتف.. عرفت بأن السيدة هارغريفز تدرك أنهما كانا معاً، لكنها لم تكشف عن معرفتها هذه.. لم تُظهر عائلتها أي اهتمام برحلتها التي افترضتا أنها كانت مع لينش، وهذا ما لم يثر ارتيابهما، فجنيفر فتاة متعقلة ولطالما عاملها لينش

على أنها صبي مثله.

بدت الوالدتان مصممتين على تحقيق زواج ما بين كليف وكلير. فقد انكبت لبديا على سرد فضائله والتلميح إلى ثروته.. ورأت في كل فتاة لطيفة ستكون سيدة رائعة.. ولطالما كانت تخشى أن يتورط ابنها مع فتاة تسعى إلى الثروة.. أما من وجهة نظر أسرة غرايون فالمميزات واضحة. مع أن كلير أظهرت بعض التمرد إذ سمعت جنيفر أمها تقول لها في خلوة:

- كل ما قلته جيد عزيزتي.. لكن عصفور في اليد أفضل من عشرة على الشجرة.

لا شك إذن أن كليف أشعل دون قصد مخيلة كلير برواياته عن بن خاله.. لقد ارتكب غلطة بإظهار افتتانه الفوري به..

بعد ظهر ذات اليوم، قرر الثلاثة الذهاب إلى إدنبره، كان لدى كليف ارتباط عمل واضطر إلى أن يقنع بزيارة مسائية ثم يخرج مع كلير.

أوصلت جنيفر أمها وأختها إلى شارع الأميرة واتفقن على اللقاء قرب النصب التذكاري الاسكتلندي بعد أن تجد مكاناً توقف السيارة فيه. ووجدت أخيراً مكاناً خالياً.. وبينما هي تتجه إلى مكان اللقاء، توقفت فجأة وقد تعرفت على سيارة تشايس.. نظرت مرة أخرى لتتأكد من رقمها، وبدأ قلبها يخفق بسرعة.. إنه هنا في مكان ما من المدينة لكن فرصة اللقاء به وسط هذه الجموع الغفيرة وكانت ضئيلة جداً.

تقدمت إلى السيارة ووضعت يدها عليها مداعبة، إنها مغسولة وأنظف مما رأتها آخر مرة. لقد أمضت أسعد اللحظات في حياتها داخلها. وبعضاً من أكثر اللحظات بؤساً.. واكتشفت أنها خلال الوقت الذي أمضته مع تشايس كانت فعلاً تعيش.. أما معظم حياتها السابقة فقد كان مجرد وجود في فراغ.

- هاي جنيتي.. هل وجدت حبك القديم مجدداً؟

أجفلت بعنف واستدارت لترى تشايس يتقدم نحوها.. نظرت مجدداً



إلى السيارة تدرك أن عينيها قد تفضحان الكثير من السعادة.. توقف إلى جنبها نظرته مثبتة على رأسها المحني وزوايا فمه تلتوي.

- أليس لديك ما توفرينه لي من سعادتك بلقاء سيارتي؟

ضحكت متوترة لكنها لم ترفع بصرها إليه:

- بالطبع أنا مسرورة جداً لرؤيتك.

- إذن انظري إليّ بدلاً من السيارة.

رفعت عينيها لتلتقي عينيه ورأت فيهما اللمعان الساخر المألوف..

قالت مقطوعة الأنفاس:

- أنا سعيدة جداً لأنني التقيت بك.. هناك شيء يجب أن أسألك عنه.

- وهل هو شيء هام؟

- إنه هام بالنسبة لي.. كنت خائفة أن يخطر ببالك زيارة «روز كوتاج»..

قاطعها:

- خائفة؟ ألا تريدينني أن آتي؟

- ليس قبل أن أتكلم معك.. فكما تعلم.. أمي وكلير تظنان أنني حظيت مع لينش..

ضحك عالياً:

- أهذا كل شيء؟

- هذا يكفي.. أوه.. أنا لم أكذب بهذا الشأن حقاً.. لم يكن ضرورياً لأنهما لم تهتما كثيراً، لذا تركتهما تظنان هذا.

- وخفت أن أظهر في «روزكوتاج» وأحييك كزميلة فراش؟

احمر وجهها:

- لم أكن هكذا أبداً.

- وهذا أمر مؤسف.. حسناً، ماذا سأقول؟ هل أدعي أننا غريبان؟ لن أستطيع، فأنا متأكد من أنني سأرتكب هفوة ما.

- وأنا كذلك. لذا من الأبسط لك أن تبقى بعيداً عنا.

مرت غمامة على وجهه وتلاقى الحاجبان الأسودان معاً، ثم قال متذمراً:

- وهل هذا هو عرفان الجميل عندك؟ يومان معاً وتريدين الآن أن تقصيني عن حياتك؟

- لم أعنِ هذا.. إذا كنت تريد حقاً أن يستمر تعارفنا.. يمكن أن نلتقي..

وتلاشى صوتها مع اشتداد عبوسه.. وقال بحزم:

- لن يكون هناك لقاءات سرية لنا يا فتاة.. قد تكونين منكمشة من كشف واقع أنك أمضيت ليلة معي بدلاً من لينش سيمونز.. الذي لا شك أنه «لقطة فقيرة».

- لكنه ليس هكذا.. إنه لطيف.. كأخ لي.

- حقاً؟ حسناً.. أنا لست لطيفاً.. ومشاعري نحو الفتيات لم تكن يوماً أخوية..

قاطعته متذكرة كلام كليف عن أخلاقياته:

- هذا ما عرفته.. من هي السيدة التي ترتبط معها؟

قال والمكر يلمع في عينيه:

- هذا أمر لست على استعداد للكشف عنه في هذه المرحلة.

- كل ما أرجوه هو أن لا تخدع الفتاة المسكينة! لقد أشار ابن عمتك إلى أنك.. متقلب.

بدا عليه السخط:

- إذن كنت تبحثين أمري مع كليف؟

- بالطبع لا.. لكن دون علمه أنني التقيت بك، حاول إعطاءنا صورة مشوهة عنك أثناء عشاء الأمس.

- أنا واثق أن هذا ما غيّر نظرتك لي، بعد أن عرفتني أكثر.

تحولت لهجته إلى السخرية:



- وهذا ما يعيدني إلى المسألة التي كنا نناقشها.. من الأفضل أن تكشفي الحقيقة يا فتاتي.. وإلا ستبدين سخيفة حين تنكشف.. وهذا أمر مؤكد عاجلاً أم آجلاً. ستظن عائلتك بالتأكيد، أنك كنت تخفين عنهم سرّ حبّ ارتكبته.. نحن لم نفعل شيئاً لا يمكن... للينش أن يفعله.. وكلما أسرعت في تقديمي إلى عائلتك وتوضيح الأمور، كلما ازددت رضى.

صمتت جنيفر.. وراحت تمسح ظهر السيارة اللامعة دون تفكير.. إنها تدرك صحة كلامه.. ولا تريد أن تكون مخادعة.. لكنها ترغب في الاحتفاظ به لنفسها.. فلا حاجة أبداً للقائه بكليو.

تقدم تشايس إلى الأمام، وأمسك يدها:

- توقفي عن هذا أيتها الساحرة المثيرة.. أيجب أن تضيعي مداعباتك سدى على آلة؟

ارتفعت عيناها الواسعتان إليه:

- الآلات لا تستطيع سرد الأخبار.

- أوه.. ألا تستطيع؟ وماذا عن الشعر الغريب المكتشف على فرشها؟ رائحة العطر، المنديل المنسي، علبة البودرة! أنت لم تدرسي محاضراتك الرومانسية جيداً، جنيفي.. لكن يكفي حماقة.. هل ستلتقين بالعائلة في مكان ما؟

- أجل.. قرب نصب «سكوت»، ما إن أجد مكاناً أوقف فيه السيارة.

- حسناً، لقد فعلت هذا.. فهيا بنا.

ذهبت جنيفر معه إلى مدخل موقف السيارات، لأنها لم تجد عذراً لفعل العكس. إنها تعرف أن كليو مهتمة بالغموض المحيط به حتى قبل أن تراه.. ولسوف ترمي بكل فتنتها لتجذبه وهي لم تلتق بعد بالرجل الذي يستطيع مقاومتها.

سألته وهما يتجهان إلى شارع «برنسيس»:

- عمتك ليديا تعرف، أليس كذلك؟ كانت تنظر إليّ باستغراب شديد.

- لقد التقيتها إذن؟ لديها روح رياضية، لايدي.. أجل، لقد طلبت منها ألا تذكر اسمي حين تقول لأهلك إنك ستتأخرين.. وأشرت إلى أنهما قد تقلقان لأنهما لا تعرفانني.. وأعتقد أن لايدي ربطت سبباً خاصاً مع طلبي.. لهذا نظرت إليك بتعجب، ألم تفعل؟

- حقاً! لكنني أعتقد أنها كانت مندهشة من منظري، فأنا لا أبدو كذلك النوع من الفتيات اللواتي تلتقطهن عادة.

- هذا افتراض ظالم، فأنا لا ألتقط الفتيات. وحالتك أنت كانت استثناء.. فرضت نفسك عليّ لأنك أردت الوصول إلى اسكتلندة.. ثم ليس لدي نوع محدد من الفتيات.. في يوم من الأيام ستجعلينني أضربك على قفاك!

- أعرف أنك تعتبرني طفلة، أو جنية صغيرة.. لكنني أكبر سناً من هذا النوع من العقاب.

استدارا حول الزاوية الموصلة إلى شارع الأميرة، وتقدما فوق الرصيف العريض الذي يمر بجانب الكنيسة، بدت إلى يمينهما حدائق غارقة تحت مستوى الطريق، كانت عبارة عن فسحة واسعة من المروج الخضراء المعشوشبة، والزهور، والأشجار.. قربها تشايس إليه أكثر والجموع تحشرهما، معظمهم من السائحين.. وسألها:

- هل يمكنك اقتراح شكل من أشكال العقاب تستمتعين به أكثر؟

- لا تكن سخيفاً.. لا أحد يستمتع بالعقاب، ولن يكون عقاباً إذا استمتعت به.

- آه.. لكن السعادة التي يمنحني إياها تطبيقه يجب أن تشعري بها أيضاً إذا كنت غير أنانية.

- يا له من جدال سخيف.. وأنا أؤكد لك أنني أنانية جداً.

- هذا ما لا أصدقه.

كان نُصب «السكوتش» أبرز معالم شارع الأميرة.. كان هناك مقاعد على الرصيف العريض المحيط بالنُصب تحت ظل الأشجار، وقد جلست



على أحدها. كانت كلير ترتدي اليوم فستاناً بلون كحلي وتنورة ضيقة بالتدريج مع حزام أبيض عريض يبرز خصرها النحيل، وياقة بيضاء عريضة مفتوحة عند العنق.. يحيط بوجهها الناعم قبعة قش عريضة.. كانت صورة رائعة جذابة ينظر إليها بإعجاب كل رجل كان يمر بالمكان.

لاحظت كلير تقدم جنيفر فوقفت تنفض تنورتها.

- ها أنت أخيراً جيني.. ظننا أنك لن تأتي أبداً، أكاد أموت عطشاً لفنجان شاي.

اتجهت عيناها نحو الرجل الواقف إلى جانب أختها واتسعتا دهشة لملاحظة ذراعيهما المتشابكتين.

- هل التقيت بصديق؟

شدت جنيفر على أسنانها:

- أجل.. هذا هو السيد تشايس ماك كونال.. وكيفية لقائي به قصة طويلة.

أخذ تشاس اليد الممدودة إليه، وترك أصابع جنيفر تسقط عن ذراعه.

- قيل لي إن لجنيفر شقيقة جميلة.. وأنا أجد الآن أن الشائعات لم تكذب.. إنني مسرور جداً بمقابلتك.

استدارت جنيفر عنهما واستقرت عيناها على العمدان والقناطر التي تحيط بها، وأحست بقليل من الغثيان.. لقد كان وجه تشايس يحمل نظرة مألوفة جداً.. التعبير في عينيه كان تعبيراً يظهر على وجه أي رجل وهو يلتقي بأختها.. لقد تمكنت كلير من تحقيق نصر آخر.

* * *

## ٦ ـ المهرجة والملكة

لو أن أحداً قال لكلير غرايون إنها فظة الأخلاق في اندفاعها للاستيلاء على صديق أختها، لفتحت عينيها واسعتين وقالت: لكنني لم أفعل شيئاً من هذا.. ولا ذنب لي لو أنه اختارني.. أنا «لم أفعل» شيئاً.. ثم إن جنيفر لن تقبل برجل يتشوق إلى امرأة أخرى.

وهذا صحيح تماماً.. مع ذلك كان أمراً مؤلماً لجنيفر التي كانت ترى مخاوفها تتحقق.. وكان عليها أن تجلس أثناء تناول الشاي تراقب أختها الساحرة وهي تسحر تشايس.

لم يكن في تصرف كلير أي شيء متعمد.. فالتلاعب بأي رجل كان اندفاعاً طبيعياً فيها.. كانت تستجيب لإعجاب الرجال كزهرة تمتد نحو أشعة الشمس. وجهها الناعم مشرق، العينان تتبادلان الاهتمام والإثارة، الفم الشبيه بالزهرة منفتح قليلاً، أو مستدير بانحناءة ضحكة لذيذة.

كانت جنيفر الأولى في الإعتراف بأن أختها لا تقاوم.. وبالرغم من ألم قلبها، راحت تراقب حركات كلير بكل إعجاب.. لن تستطيع لوم تشايس لافتتانه، وبالرغم من قوله إنه لا يتأثر بالنساء الجميلات فقد كانت تعرف أن هذا أمر حتمي.

كانت ليزا ساخطة بقدر سخط جنيفر.. فهي لم تنظر بعين الثقة إلى المعجب الجديد بكلير.. وقد تكون نواياه غير شريفة.. بينما كليف كما قالت لها أمه يحتاج إلى زوجة.. إنه يريد أن ينشىء عائلته الخاصة وما من شك في أنه جاد. لكن هذا الهايلاندي الأسود القسمات، واللمعان



في عينيه الرماديتين، كان مثيراً للريبة، ولقد أعلن ابن عمته أنه ليس من الصنف الذي يتزوج.. ولو أن كلير منحت حبها له فسيكدر هذا الحب وينشل بالتالي تخطيط السيدة هارغريفز الدقيق.

بينما ينهما سرد تشايس وجنيفر قصة رحلتهما إلى اسكتلندة كاتمين بعض الأحداث.. وكانت جنيفر قد أملت أن تتمكن من التأثير على أهلها بإقناعهم بأن لها الحق في صداقته.. لكن عدة ردات فعل على قصتها كانت مثيرة للسخط.

قالت السيدة غرايون إن لينش ما كان يجب أن يقترح مثل هذه الخطة المجنونة، بعد أن اكتشف أنه لن يستطيع السفر بنفسه.. وكان يجب على جنيفر أن تفكر بتعقل أكثر، وتسافر بالقطار بدلاً من أن تجعل من نفسها مصدر إزعاج.

تحت جنيفر فمها لتقول إن الفكرة لم تكن للينش أبداً. لكنها لمحت عيني تشايس، فصمتت.. ربما من الأفضل أن تترك أمها واهمة.. فحين وافق تشايس على مرافقتها له كان يظنها صبياً.

قالت كلير بحلاوة:

ـ كنت لطيفاً جداً تشايس، بتحملك عبء أختي الصغيرة. وأظنها لم تدرك أنها عبء ثقيل.. وأرجو أن تكون قد أحسنت التصرف ولم تحبك.

قال تشايس بوقار:

ـ كان تصرف أختك دون شائبة.. ولم تكن عبئاً مع أنها كادت تتسبب لي بالإغماء حين أصرت على قيادة سيارتي.

صاحت السيدة غرايون بلهفة:

ـ بالتأكيد لم تسمح لها؟

ـ لم يكن لدي خيار آخر.

نظرت كلير إلى أختها مؤنبة:

ـ أوه جيني.. ماذا فعلت؟ لا شك أنك كريم الأخلاق تشايس.. إنها



www.liilas.com

مجنونة بالسيارات ولا تدرك أن ليس الجميع على استعداد للثقة بها في قيادة سياراتهم.. وأرجو ألا تكون قد سببت لها ضرراً.

صاحت جنيفر:

- أتمنى ألا تتكلمي عني وكأنني لا أعرف المسؤولية! كانت فكرة السيد ماك كونال أن أجرب قيادة سيارته.. حتى إنه اعترف بأنني سائقة ماهرة.. ويبدو أنكم جميعاً تنسون أن لدي خبرة في هذا المجال، وأنا أبلغ العشرين من عمري.

تمتم تشايس بخبث:

- أجل.. لقد كانت خبرتك واضحة.. لكن لماذا تنزلين رتبتي إلى سيد؟

قالت كلير:

- أنت صغيرة جداً بالنسبة لسنك حبيبتي.

كم رغبت جنيفر في أن تضربهما معاً.. ولم تجب على سؤال تشايس، فاستدار نحو كلير وتابع كلامه:

- ها هي خططك لما تبقى من بعد الظهر؟ ألم تصعدي إلى النُصب بعد؟.. فيه مئتان وسبع وثمانون درجة.. والمنظر من القمة رائع.

نظرت كلير إليه برعب:

- وهل يتسلقها الناس حقاً؟

- عشرات منهم.. ألم تلاحظي هذا وأنت جالسة هناك؟ أنا حر الآن إذا أردت أن تتفرجي على المناظر، وبإمكاني التجول معك في المكان.. إذا كنت لا تريدين الصعود إلى النُصب، فما رأيك بالقلعة؟

قالت كلير على عجل:

- في الواقع جئنا إلى هنا لقليل من التسوق، والطقس حار للسير على القدمين.

التوى فم تشايس بخشونة:

- التسوق، كما أخشى، لا بروق لي كثيراً.



نظرت جنيفر بأسف إلى القلعة المرتفعة عالياً على الصخرة الكبيرة الواضحة تماماً من نافذة المقهى. وتمتمت:

- أحب أن أرى القلعة.

قالت الأم بخشونة:

- في وقت آخر.. هذا أول يوم لنا هنا.. وعلينا ألا نبقى طويلاً. وهذا لأنها تتوقع زيارة كليف هذا المساء.

تنهدت جنيفر.. كانت تأمل أن يعرض تشايس مرافقتها.. لكن واضح أنه لا يريد ترك كلير، لذا قال لهن إن عليهن مشاهدة الموكب العسكري الموسيقي الذي يعرض كل مساء خلال الاحتفالات وعرض عليهن شراء تذاكر لحضورها.

وقال مقترحاً ينظر بلهفة إلى كلير:

- ما رأيكن بمرافقتي غداً؟ سأقدم لكن العشاء في مكان ما أولاً.

قالت ليزا:

- أعتقد أن علينا الطلب من كليف أن ينضم إلينا.. أليس هو ابن عمك؟

قطب تشايس حاجبيه مكشراً:

- إذن.. لقد عرف طريقه إلى «روزكوتاج».

قالت كلير:

- لقد كان لطيفاً جداً.. على أي حال هو صاحب الملك.

قال تشايس ساخراً:

- أصحاب الملك عادة ليسوا لطفاء.. إنهم يسعون وراء كل ما يستطيعون الحصول عليه.

تحولت ابتسامة كلير إلى الإغواء.. وتمتمت:

- ربما يكون هكذا.. لكن من الأفضل أن يتواجد رجل آخر في المجموعة لأجل جنيفر.

نظر تشايس إلى جنيفر نظرة شيطانية:

- طبعاً.. يجب أن لا نترك الطفلة المسكينة تشعر بالحرمان.

زاد غضب جنيفر من الداخل.. وبدت الأم ساخطة. كان تشايس يوضح أن كلير هي سبب دعوته وأنه ينوي التودد لها.

قالت جنيفر دونما لباقة:

- بإمكانكم استثنائي.

صاحت كلير:

- أوه.. لا جيني.. لا تكوني سخيفة. عرض عسكري موسيقي في القلعة هو ما نحبه تماماً.. وبالطبع سأحب مشاهدته أيضاً.

وأخفضت صوتها لتهمس لتشايس: معك.

أثناء طريق العودة إلى المنزل، عادت كلير مراراً إلى موضوع تشايس تحاول استدراج جنيفر إلى الكلام لمعرفة المزيد من المعلومات حول رحلتهما.. لكن جنيفر تعمدت المراوغة، فهذه تجربة لا ترغب بأن تشاركها مع شقيقتها.. وقالت لها إن تشايس خلال الليلة التي أمضياها معاً، نام خارج المقطورة.

فتنهدت كلير:

- رجل بمعنى الكلمة.. لكن، لو كنت معه، لفضلت أن يبقى في المقطورة.. فسأكون متوترة الأعصاب لوحدي.

قالت ليزا:

- لقد أظهر إحساساً متفوقاً بالاستقامة.. لكن بالطبع ما كان يجب على جنيفر أن تذهب معه.

لم تقل جنيفر شيئاً مع أنها كانت تتساءل داخلياً عما ستقول كلتاهما لو عرفتا ما حدث حقاً.

عندما وصل كليف ذلك المساء مع باقة كبيرة من الورد لكلير.. لم يجد الموضوع مستساغاً أكثر مما كانت جنيفر تجده.. لكن كلير تابعت حماستها:

- إنه يجسد فكرتي تماماً عن زعيم عشيرة في «هايلاند». أتصوره



يسير عبر الحقول المزهرة في التنورة المربعة النقوش.. قلت إنه يرتدي الثوب التقليدي حين يكون في منطقته؟

- لست أدري أي نوع من الثياب يفضله ابن خالي.. لكنني أعرف أن وادي «غلين كونال» هو مكان بدائي، وأنه لن يعجبك أبداً.. وأن الموردات هناك لا يملكون مالاً.. المال في اسكتلندة، يكتسب في الأراضي المنخفضة «اللولاند» حيث المصالح التجارية.. ولم تكن «هايلاندر» تعيش سوى من الماشية وسرقتها إلى أن أعطتهم السياحة دفعة إلى الأعلى.. ولو كان لتشايس أي عقل سليم، وهذا ما أشك فيه، لقلب ذلك الحصن العتيق الذي سيرثه إلى فندق محترم، أو نزل، أو ما شابه.

سألت كلير:

- أتعني أن تشايس يملك قلعة هناك؟ يجب أن أجعله يصطحبني لرؤيتها.

بدا القرف على وجه كليف:

- يلزمك يوم كامل لتصلي إلى هناك.. إنها مجرد مخزن غلال قذر.. ولا تستأهل السفر المتعب الطويل.

بدا الخبث على كلير:

- إذا كانت بعيدة هكذا للذهاب والعودة في يوم واحد.. فعلى المرء قضاء ليلة هناك.

- ليس في المكان فندق محترم على بعد أميال.

قالت ببراءة زائفة:

- لكن ربما يستطيع تشايس إيواثي في مكان مريح؟

صاحت الأم مصدومة: كلير!

أكملت كلير ضاحكة:

- لا بد أن لديه مديرة منزل، أو شخصاً ما يهتم بنظافة ذلك المكان.

قال كليف متصلباً:

- لا أعتقد أن هذا مناسب أبداً.. ولا أعرف ما إذا كان هناك أحد

بسكن المكان.. وأظن أنه غير مجهز للسكن حسب مقاييسك.

نظرت كلير إليه بحاجبين مقوسين.

- لكنك لا تعرف ما هي مقاييسي.. أنا واثقة أنني على استعداد لتحمل الخشونة لليلة أو اثنتين.. إذا كانت الرفقة مناسبة.

قال كليف بغضب:

- لا تعرفين عم تتكلمين!

تدخلت ليزا بسؤال عن ترتيباتهم للأمسية التالية.. وكانت جنيفر قد أصغت للحوار الدائر متشوقة لرؤية منزل تشايس أيضاً.. لكن كلير كانت تخطط لرحلة لاثنين فقط.. وأي اعتراض قد تثيره سترد عليه كلير قائلة إنها هي نفسها قد أمضت يومين وليلة في صحبة تشايس وتصرف معها بكل أدب، لذا فهي على استعداد للثقة به.. ويمكنها أن تكون قوية الإرادة إلى درجة العناد حين يكون لديها هدف تسعى إليه حتى إن أمها لا تستطيع منعها إذا صممت على زيارة «الهايلاند» مع تشايس الذي سيوافق حتماً على رغباتها..

لم تكن جنيفر ترغب في سماع المزيد عن تشايس ماك كونال، لذلك بقيت في غرفة الجلوس إلى أن تأكدت من أن كلير قد نامت. كانت في حالة غضب.. فليس من العدل أن تحصل أختها دائماً على ما تريد، بينما هي تصنف كجنية أو مخلوق مشابه. ليس هناك مساواة بين النساء.. فالجميلات خلقهن مع أفضلية طبيعية وسيبقين دائماً مفضلات على القبيحات.

لكن مع دخولها إلى غرفة النوم ورؤيتها لوجه كلير الملائكي بالرغم من الشعر المشعث.. عادت إليها طيبتها المحببة. لا أحد يلام لو أن تشايس وكلير وقعا في حب بعضهما من أول نظرة.. ومن مصلحة أختها أن تفكر بالرجل أكثر من تفكيرها بماله، وتنسى نظرتها المرتزقة نحو الزواج.. يبقى هناك تلك المرأة التي يرتبط تشايس بها.. لكن جنيفر لا تعتقد أن على كلير الخوف من أي منافسة من جهولة، فسرعان ما يعقد



تشايس العزم على فك ارتباطه. وهي كانت شريرة في حسد أختها على سعادتها. وهمست لنفسها: سأكون الوصيفة الأولى، وعرابة أول طفل.. لكنها على الأقل لن تقود سيارته الفاخرة.

وصل تشايس قبل ابن عمته في المساء التالي.. كان يلبس بذلة رسمية رمادية رائعة التفصيل، وقميصاً أبيض، وربطة عنق زرقاء، وبما أن جنيفر لم تره حتى الآن سوى بثياب عادية، فقد صدمها مظهره الجديد. بدا أكبر سناً، رجلاً محنكاً، ومناسباً أكثر بكثير لمرافقة شقيقتها بدلاً منها.

كانت كلير ترتدي تنورة «تارتان» مربعة الخطوط اشترتها في إدنبره، مع بلوزة دون أكمام.. ولمحت جنيفر نقطية على وجه تشايس حين رأى كلير تسرع راكضة لتستقبله.. ثم استدارت على رؤوس أصابع قدميها تسأله:

- أعجبتك؟ أشعر الآن أنني اسكتلندية حقيقية.

قال تشايس باختصار:

- لكنك لست اسكتلندية.. ولا أظن هذا الطراز يناسبك.

كان في صوته حدة.. وخمنت جنيفر أنه لم يحب أن يرى ما كان بالنسبة له رمزاً عشائرياً يرتديه من لا حق له بارتدائه.

وأكمل:

- أنت بحاجة إلى وشاح.. قد يكون الطقس بارداً في الخلاء.

واستدار نحو جنيفر:

- هاك الكتاب الذي وعدتك به.

أعطاها الكتاب الكبير الذي يحمل على غلافه شعار اسكتلندة الملكي، والشعار الإنكليزي، بين أسدين واقفين.

صاحت كلير تنتزع الكتاب من يد جنيفر: دعني أراه.

أجفل تشايس، وقال:

- إنه كتاب ثمين.

ردت كلير، مع أن طريقة تفحصها لصفحاته لم تكن لطيفة أبداً:

ـ لن أصيبه بضرر.

وأعادته إلى أختها.. فسألت جنيفر بوقار:

ـ هل شعارك موجود فيه تشايس؟

ابتسم لها، وكأنه مرتاح:

ـ هناك رسم صغير في الصفحة الواحدة والخمسين.

قلبت جنيفر الصفحات بلهفة، وشاهدت صورة لمحفورة خشبية غير ملونة، لثلاثة أسود «سابل» سوداء قائمة والشارة بينهما، وكتب تحت المحفورة «درع ماك كونال».

قالت بانتصار:

ـ أو.. بين أسود ثلاثة قائمة، «سابل».

ـ أحسنت.

احتجت كلير:

ـ لقد قرأت هذا في الكتاب.

قال تشايس:

ـ لا تستطيع، فالشرح غير موجود على هذه الصفحة.

قالت كلير بغضب:

ـ على أي حال يبدو هذا الوصف كلاماً غامضاً غير مفهوم.

واضح أن غضبها مرده عدم إعجابه بتنورتها، ثم صاحت بمرح مبالغ فيه:

ـ أوه.. ها قد وصل كليف.

وركضت تفتح له الباب ليدخل.. ولا شك أن هذا الاهتمام أسعده كثيراً، فقد بدت ابتسامة عريضة على شفتيه وهو يلحق بها إلى غرفة الجلوس.. وسأل:

ـ لم أتأخر، أليس كذلك؟

ثم ارتفع حاجباه وهو يلاحظ مظهر كلير، ونظر إلى تشايس يقول:



ـ هذا سابق لأدائه قليلاً.

رد تشايس بجفاء:

ـ لم يستشرني به أحد.. إنه خيار السيدة الخاص.

ـ وخيار جيد.. يناسبك تماماً التارتان الخاص بماك كونال، كلير.

عكس وجه كلير خيبة أملها وقد أدركت أنها ارتكبت غلطة اجتماعية.

ـ أوه.. يا إلهي! لكن، صدقاً، لم أكن أعرف.. كل ما فكرت به هو أنها تنورة جميلة.

قال تشايس بلطف وقد زال سخطه أمام إحباطها:

ـ بالطبع لن تعرفي.. والآن بإعادة النظر إليها عن قرب أكثر، أجد طرازها مختلفاً تماماً.. هناك لون أزرق فيها أكثر من ألوان «ماك كونال».

ضحك كليف مقهقهاً، وقال لجنيفر هامساً:

ـ يقولون إن الحب أعمى.

والتفت إلى كلير مكملاً:

ـ بما أن سيارتي هنا، أليس من الأفضل أن تأتي معي بدلاً من الذهاب في سيارة تشايس الكبيرة كالباص؟ ويمكن أن نلتقيهم في المطعم.

خفق قلب جنيفر للاقتراح.. ونظرت بلهفة إلى أختها.. لكن رغم استياء كلير من عدم إعجاب تشايس بملابسها، إلا أنها لم تكن مستعدة للتخلي عن صحبته. وقالت:

ـ أعتقد أن علينا جميعاً البقاء معاً.. وأنا أحب ركوب السيارات الكبيرة.. هل لي أن أجلس في المقدمة معك تشايس؟

قال متوددا:

ـ سيسحرني هذا.

توقفت جنيفر وهم يخرجون إلى الردهة تسمح للآخرين بأن يسبقوها.. وعاد تشايس ليحمل عنها سترتها ودثار كلير. قال وهو يأخذ الملابس منها بعد أن تلامست يداهما وشد على أصابعها:

ـ أرى أنك أنت المتعقلة.. ابتهجي جنيتي.. نحن لن نذهب إلى

جنازة.

أبهجتها قليلاً حركته والابتسامة المشرقة التي رافقت كلامه.. لقد كان لديه الوقت لملاحظة اكتئابها رغم أنه مسلوب اللب.. ابتسمت له بخجل ونزلت الدرجات القليلة راكضة إلى السيارة أمامه بينما أقفل الباب خلفهما.

كانت كلير تجلس في المقعد الملاصق للسائق تبدو راضية بنصرها، بينما فتح كليف الباب الخلفي لجنيفر وصعدت تتكهن برحلة غير مريحة.. لكن كليف كان شديد التهذيب. تحدث بلطف مع جنيفر خلال الرحلة إلى إدنبره.. ووجد أن لديهما اهتماماً مشتركاً بالسيارات وقال إن عليها أن تسمح له بأن يأخذها لتجرب سيارته الرياضية الصغيرة، أمام سيارة تشايس الضخمة.. وسألته بأمل ما إذا كان سيسمح لها بأن تقودها.. فضحك:

- ستجدينها مختلفة عن تلك «الخنفسة» التي استأجرتها أمك.

- بالضبط ولهذا أريد تجربتها. ستكون قيادتها أكثر إثارة.

وكانت ملاحظة سمعها تشايس بالرغم من انشغاله بحديث كلير الهامس.. فرفع صوته، وقال معلقاً:

- لا تدعها تفعل كليف.. يعلم الله أنك شرير وأنت تقودها، فما بالك بوجودك معها تشجعها.. أرتجف لمجرد التفكير.

احتجت جنيفر:

- هذه مسألة بيني وبين كليف.. ولست أفهم سبب تدخلك فيها.

- لا شيء.. عدا أنني أكره أن أراك مكسورة العنق.

- لم يحدث شيء حين قدت سيارتك.. ولا أرى أن سيارة كليف يمكن أن تكون خطرة أكثر من سيارتك.

قالت كلير:

- يستطيع كليف بالتأكيد أن يعتني بجنيفر مثلك تماماً؟

قال تشايس:



- ليس الأمر مسألة عناية بها.. بل السيطرة عليها.

صاحت جنيفر ساخطة:

- ها أنت مجدداً.. تتكلم وكأنني حمقاء!

رد تشايس والكثير من القصد في صوته:

- أنا لم أشك يوماً بسلامة عقلك.. بل بتحفظك.

واحمر وجه جنيفر في عتمة السيارة، لم يعجبها ابتعاد الاهتمام عن نفسها فتدخلت كلير بتعليق تافه، بينما همس كليف لجنيفر:

- هل وثق بك حقاً في قيادة سيارته؟

مع تأكيدها له، صفر كليف بصوت منخفض وابتهج بشكل ظاهر.. وفكرت جنيفر أنه يخدع نفسه إن كان يعتبر هذا أمراً مميزاً، فهو لا يعرف الظروف الحقيقية التي سهلت ذلك.. تذكرت البديل الذي اقترحه تشايس، ونظرت بارتياب إلى رأسه.. هل تشايس ماك كونال هكذا مع كل النساء؟

أنزلهم تشايس أمام المطعم في «كانونغايت» حيث حجز طاولة.. وأكمل طريقه ليجد مكاناً لإيقاف السيارة. وهم ينتظرون كان الجو بينهم مختنقاً قليلاً فكليف لم يسامح كلير بعد على هجرها له.

تلاشى التوتر مع عودة المضيف، فقد كان تشايس في مزاج مرح.. وانطلق الشابان ليؤكدا أنهما مسليان تحثهما المنافسة بينهما.. وكان لجنيفر حصتها من التودد، بعيداً عن أي خوف من الإهمال لها.. وكانت عينا تشايس تلمعان بتسلية سرّية وهو ينقل نظره بين ضيوفه الثلاثة.. وما هي إلا فترة قصيرة حتى تلاشت مخاوف جنيفر تماماً.. وكان لها لسان طليق أكثر من أختها.. وانطلق تشايس يتحدث باللهجة الاسكتلندية يستخدم كلمات لم تفهمها أي من الشقيقتين.. مما تسبب ببعض الضحك خاصة حين حاولت جنيفر تقليده.. ولم تحاول كلير التحدث كثيراً وكانت تطبق لعبة بارعة بعينيها تركز نظراتها الفاتنة على كل رجل منهما بدوره.. وفكرت جنيفر وهي تجتذب الضحك مجدداً: أنا مهرجة البلاط

وكلير ملكة الجمال والحب.

خرجوا بعد الطعام إلى «كانونغايت» في حالة مرح شديد، وأمسك تشابس ذراع كل فتاة منهما إلى جانبه قائلاً:

- على شكل ثنائيين.

ومارع كليف إلى شبك يده بذراع كلير الأخرى.. وسار الأربعة عبر شارع «رويال ميل» نحو القلعة.

أصبح الرصيف أكثر زحاماً مع اقترابهم من «اللوماركن»، وتزايد عدد القادمين لرؤية استعراض القلعة العسكري الموسيقي.. وقال تشابس:

- تمسكا بي يجب ألا نضيعكما.

أنزل ذراعه يحيط بخصر جنيفر.. ولم تعرف ما إذا كان قد فعل الشيء عينه مع كلير. وبدأت أعصابها تشتد توتراً من قبضته المقربة لها.. كان الابتهاج بادياً على الجموع هناك وبدت القلعة المشعة أنواراً وكأنها قد عادت إلى الحياة.. كانت جنيفر تتوق إلى البقاء بقرب هذا الرجل الذي يثير الاستغراب في أعماقها.. ورمت رأسها إلى الوراء تضحك بفرح.

أدار رأسه ينظر إليها.

- هل تمرحين جنيتي؟

كانت عيناها الطويلتان مشعتين، وشعرها يتطاير بنعومة بعيداً عن وجهها.. وأجابت: أجل.

- وأنا كذلك.. وأحب أن أراك تضحكين.

سألت كلير من الجهة الأخرى بصوت مشاكس:

- فيما تتهامسان؟

قال تشابس بوقار وبلغة فرنسية:

- حول الاستمتاع بمباهج الحياة.

- أنا لا أفهم الفرنسية.. وواثقة أن جنيفر لا تفهمها، ألن ينتهي هذا الطريق أبداً؟ تؤلمني قدماي.



لكن جنيفر كانت تتمنى لو يستمر الطريق إلى الأبد، وذراع تشابس حول خصرها.. كان بإمكانها أن تنسى وجود كلير.. لكنه تركها عند البوابة.. واستأجر لهم وسائد صغيرة قائلاً إنها ضرورية لأن المقاعد قاسية.. ودخلوا إلى ساحة واسعة حيث سيجري العرض العسكري، كان المكان محاطاً بمنصات تحتوي على مقاعد من ثلاثة جوانب.

دفع تشابس بجنيفر أمامه لتصعد السلم إلى صف المقاعد الذي يجلسون فيه. ووضع نفسه مرة أخرى بينها وبين أختها، وبقي كليف في الجهة الأخرى. لم تشعر جنيفر بحاجة إلى السترة التي ترتديها، فالساحة محمية بما يحيط بها وبعيدة جداً عن برودة الليل، والمنصات مكتظة بالناس.. ثم قدّم شخص مقدمة صغيرة عبر المذياع ودخلت الفرقة الموسيقية للواء «الهايلاند» العسكري، تسير بخطى عسكرية عبر بوابة القلعة على وقع موسيقى القرب في لباسها التقليدي، التنورة المربعة التقطيع، الحقيبة الجلدية المتدلية من الأمام، الوشاح المربع، والقلنسوة..

تنهدت جنيفر:

- إنه رداء رائع الجمال. لماذا لا ترتديه تشابس؟ لك الحق فيه.. أليس كذلك؟

- أرتديه في المناسبات الخاصة.. وليس الثوب الرسمي للجنود بالطبع.. فثوب السيد الهايلاندر المحترم، مؤثر أكثر.. لكنني لا أريد أن أظهر نفسي بشكل مميز أمام حشد كهذا.. فأنا لست جزءاً من الاستعراض.

- على كل حال.. أرغب في أن أراك ترتديه.

- ربما ستحدث مناسبة.

لكنها لم تعتقد أن هذا ممكن.

تتابع عرض المزيد من الفرق الموسيقية بتابلوهات لم تكن مؤثرة جداً.. قدم المشاركون رقصات وعروض عسكرية، واختتمت العرض

فرقة قرب اسكتلندية تعزف موسيقى «الفال» . . قبل أن تطفأ الأنوار.

راقبت جنيفر كل شيء باهتمام شديد، وما إن حان وقت الرحيل حتى اكتشفت أن كلير كانت نائمة ورأسها يرتاح على كتف تشايس.

قال باللهجة العامية وهو يضحك:

- مسكينة . . أخشى أنها كانت ضجرة بشكل رهيب.

قالت جنيفر:

- أنا لم أضجر . . لقد استمتعت بكل دقيقة.

- أحسنت صنعاً.

هز كلير بلطف:

- استيقظي! كليف، يجب أن نخرج من هنا بسرعة قبل ازدياد الزحام.

فتحت كلير عينيها الناعستين الزرقاوين:

- كان استعراضاً رائعاً، تشايس.

- طبعاً . . لكن لا بد أنك شاهدت النصف الثاني منه في الحلم.

- لم أكن نائمة . . أغمضت عيني فقط لبضع دقائق، كان رأسي يؤلمني قليلاً . . فأنا أحب أن يكون معي رجل قوي استند إليه.

قالت تشايس متودداً:

- هذا تمييز لي . . فأنا أتمتع باستناد أحد علي . . على النساء الاعتماد على رجالهن.

انطوت جنيفر على نفسها . . فتشايس يحب النساء الناعمات المتعلقات به . . ويشعره ضعفهن بالعظمة والرجولة . . وتلاشت كل السعادة التي أحست بها . . ربما كان يفضل لو نامت هي كذلك؟

كان كليف أول الواصلين إلى باحة الاستعراض وتولى مساعدة كلير التي كانت تلحق به مباشرة، بينما التفت تشايس ليمد يد المساعدة إلى جنيفر ولو دون حاجة، لأنها كانت تنزل السلم الخشبي عن المنصة وكأنها الماعز الصغيرة . . ودفع كليف بكلير بين الجموع . . وقال تشايس معلقاً



على احتمائهما:

- كليف مخطط أبرع مما ظننته.

ولظنها أنه مستاء، قالت جنيفر ساخرة:

- أنتما كليبن أمام عظمة واحدة.

نظر تشايس إليها نظرة حادة فيها بريق الانتصار . . لكن تعليقه كان هادئاً:

- هيا الآن، لم نصل إلى مرحلة التعارك بعد.

- وهل نقاتل لأجل المرأة التي تحبها؟

- بالطبع لا . . فالمبارزات من هذا النوع أصبحت قديمة الطراز.

- هناك أسلحة أخرى.

- أجل . . لكن قبل أن أشحذ خنجري إذا جاز التعبير، يجب أن أتأكد من أن مشاعري متبادلة.

خرجا من المدخل وسلما الوسادتين، ثم قادها إلى اليمين نحو سلم حجري طويل يقود إلى حيث تقف سيارته . . وقالت جنيفر له بمرارة:

- لا أعتقد أن هناك أي شك في هذا.

حاول النظر إلى وجهها لكنها أبعدت رأسها.

- حقاً؟ النساء مراوغات . . لا يقلن أبداً ماذا يعنين.

- ما تعنيه كلير واضح جداً.

- كلير . . ؟ وهل نحن نتكلم عن كلير؟

- أوضح أرجوك!

- ليس بالضرورة . . لكن ألا تعرفين رأيي بأختك؟

- إن رأيك بها واضح جداً.

صفر بصوت منخفض:

- هكذا الأمر إذن! لكن الدلائل لا تبشر بالخير.

لم تقل جنيفر شيئاً وفكرت بتساؤل كيف يمكنه أن يشك بالدلائل.

كانا يسيران نزولاً على الدرج الطويل وهما متشابكي الذراعين . .

وصولهما إلى الأسفل، ظهر أمامهما الجانب الأكثر انحداراً في الصخرة التي تحمل القلعة. ارتجفت جنيفر وهي تنظر إلى الجرف الصخري المخيف الذي يبدو شريراً في النور المنبعث من البلدة وقالت:

- تبدو القلعة مخيفة جداً من هذه الجهة.. لا يستطيع أحد التسلل إليها.

توقف تشايس، ذراعه لا تزال في ذراعها، ورفع رأسه لينظر إلى الصخرة البركانية السوداء.

- إنها شديدة الانحدار.. لكنني تسلقتها من قبل.

شدت ذراعه إليها وقد راعتها المخاطرة بحياته:

- حقاً؟ لكن لماذا؟ أولم يكن هذا أمراً أحمق؟

أسعده قلقها على ما يبدو، فربت على يدها مطمئناً وقال معترفاً:

- ربما.. لكن الأمور الهينة لم ترق لي يوماً.. أنا أحب التحدي.

رفعت عينين متسعتين إليه:

- لكن كان يمكن أن تُقتل.

رأت في عينيه نظرة لم تستطع تفسيرها، وأحست بقشعريرة تسري في جسدها.. وقال بنعومة:

- هذا صحيح.. لكنني لم أُقتل.. فلو قتلت لما كنت التقيت بي ولا عرفتني.

ما كانت لتلتقيه أبداً! ولربما وفرت على نفسها الكثير من الألم.. لكنها كذلك كانت ستفتقد لما تشعر به وكأنه خطوة فاصلة مميزة في تطور نضجها العاطفي.. يمثل تشايس لها شيئاً، صحيح إنها لا تعرف ما هو بالضبط، لكنه شيء هام.. وقالت مبعدة أفكارها:

- ولما كنت قدت سيارة الفوكسهول الفاخرة.. وهذا شيء أكره أن يفوتني.

قسا وجهه وقال ساخراً:

- لديك تفكير محدود، جنيني!



تابعا طريقهما، بينما اتجهت أفكار جنيفر إلى موضوع آخر. لقد ذكر التحدي وتساءلت عما إذا كان يعتبر ملاحقة كليف لكلير تحدياً له.. أنها لا تعتقد أن لدى كليف فرصة كبيرة أمام «هايلاندري» متعجرف.

قالت لمجرد الحديث:

- نريد كلير رؤية «غلين ماك كونال».. وهي تأمل أن تتدبر هذا لها.

- إذن يجب أن ننظم رحلة إلى هناك.. ألا تريدين رؤيته كذلك؟

كبتت شوقها الذي قد يكشف الكثير، وقالت دونما اهتمام:

- هذا، وأشياء أخرى.. سيكون من المؤسف ألا نزور «الهايلاند» ونحن هنا.

علت وجهه خيبة أمل وقال: أوه.. طبعاً..

وصلا إلى السيارة المتوقفة على حافة الشارع مع صف طويل غيرها.. وكان كليف وكلير بنتظران..

قالت كلير متذمرة:

- لقد تأخرتما دهراً.. ظننا أنكما لن تأتيا أبداً.

قال تشايس بعد أن ترك ذراع جنيفر:

- لقد تأخرنا أثناء مرورنا عبر الجمع المحتشد.

رد كليف بصدق:

- لم يمض على وجودنا هنا سوى خمس دقائق.. لكن كلير متعبة.

قال تشايس:

- إذن ستجد المقعد الخلفي أكثر راحة.

وفتح الباب لها، وقبل أن تستطيع الاحتجاج دفعها كليف إلى الداخل واستقر إلى جانبها.. ولم يبق أمام جنيفر إلا أن تأخذ المقعد الأمامي.

قال تشايس مع توقف السيارة عند إشارة المرور:

- كليف.. ترغب الآنستان في زيارة «الهايلاند» وأعرف أنك مشغول خلال الأسبوع.. لكن ربما تستطيع أن تأتي بهما إلى غلين ماك كونال في نهاية الأسبوع القادم؟ سأكون هناك.

بدأت كلير تقول: ظننت..

قاطعها بسرعة:

- أنا مسافر شمالاً في الغد.. وسأكون سعيداً باستقبالكم جميعاً كضيوف.. تعالوا يوم السبت وابقوا هناك حتى صباح الاثنين.

فتحت كلير فمها.. ثم أقفلته، ليس هذا أبداً ما أملت به.. وقالت أخيراً:

- لا أظن أنه يمكننا أن نأتي معاً ونترك أمي وحيدة ليلتين.

قال كليف:

- أستطيع الجزم بأن أمي قادرة على التعامل مع هذا الأمر. يمكن أن تذهب إليها أو ستجد لها من ينام معها.

قال تشايس معلقاً:

- هذا مؤكد.. لايدي واسعة الحيلة. فلا تقلقي كلير، سنعتني بأمك.

قالت كلير بحلاوة:

- لا يمكننا التسبب لها بمثل هذه المتاعب.. وأنا واثقة أن جنيفر لن تمانع في البقاء معها.

وكان هذا أكثر من أن تتحمله جنيفر فصاحت بشراسة:

- لكنني أمانع.. فأنا أيضاً أريد رؤية.. «الهايلاند».

تمتم تشايس:

- ستريناها، جنيتي.. سترينها.. ولن أسمح أبداً بتركك هنا.

نظر إليها بسرعة وعيناه تلمعان، فقفز قلبها من مكانه.. همست له بحدة مستغلة انشغال كليف وشقيقتها بالحديث:

- أنت لا تريدني أن آتي إلا لأبعد كليف عن طريقك.

ضحك، وقال بلهجة انتصار أصبحت مألوفة:

- هذه فكرتك أنت جنيتي، وليست فكرتي.

أدارت وجهها عنه نحو الطريق:

- أعتقد أنني سأبقى هنا على أي حال.



- لن يحدث هذا.. فستأتين ولو اضطررت إلى جرّك إلى هناك بالمستقبل الذي حول عنقك.

- لست بحاجة إلى أمر مأساوي كهذا.. ثم أنت لن تكون هنا.

- لا شيء يمنعني من المجيء لأخذك إذا تابعت عنادك.

تنهدت:

- أنت فعلاً تحب تنفيذ ما تريد.. ولن أرغب في أن أسبب المتاعب لك.

- سيكون هذا قلة تفكير منك.. خاصة وأنك تتحرقين شوقاً للمجيء.

نظرت إلى الخلف ورأت أن كلير قد عادت إلى النوم، هذه المرة رأسها على كتف كليف، وكان على وجهه تعبير رضى سخيف أحمق كاد يجعلها تضحك.

قالت:

- أنا فعلاً أتحرق شوقاً لرؤية.. المناظر.

- أعرف هذا.. أنت لست صادقة تماماً.. جنيتي أليس كذلك؟

سألت متكبرة:

- وهل تتصور أن «غلين ماك كونال» له أهمية خاص عندي؟

- إذا لم يكن هكذا.. فأنا آمل أن يصبح له قريباً.

لم تقل جنيفر شيئاً.. وخطرت ببالها فكرة جديدة.. يريد تشايس التأثير عليها، فغزوه لقلب كلير ليس كافياً له ويجب عليه أن يحصل على رضى الأخت الصغرى كذلك.. وبرز الشك مرة أخرى في نفسها.. هل هو فعلاً متقلب مع النساء؟ وهل سيمل مع الوقت من كلير؟ أحست بموجة حماية قوية نحو أختها.. إنها أفضل بكثير من أن تكون ألعوبة بين يدي تشايس.. لكن من المستحيل تحذيرها.. فإذا وضعت قلبها وعقلها على الهايلاندر فلن تصغي لجنيفر إطلاقاً في هذا الشأن..

سرقت نظرة إلى جانب وجه تشايس، كانوا قد وصلوا الآن إلى ما

أبعد من أنوار البلدة وبقي أمامها ظل ضوء خفيف لا ينير سوى لوحة السيارة الداخلية.. رجل متكبر، متعجرف، تحدى بسهولة حق كليف في محبة كلير.. وجذبها بسهولة أكثر بعيداً عن ابنة عمته.. لكن ألا يرغب في أن يتقدم أكثر من هذا؟ وبعد الزيارة إلى موطنه، هل سيودعهما معاً ولا يرى بعد ذلك أي واحدة منهما؟ إنه يتسلى باللعب بعواطفهما.. لكن، لا كلير، ولا هي، يمكن أن يلامسا قلبه.. ستكونان في غير مكانهما الصحيح في إرثه «الهايلاندي».. وحين يعقد العزم على اتخاذ زوجة له سيختار واحدة من عشيرته أو من العشائر المجاورة.

كرهت في هذه اللحظات تشايس ماك كونال.. بشدة وعنف الكراهية التي يقال عنها إنها الوجه الآخر للحب.

***

فراشة نجمة
www.liilas.com



## ٧ ـ الرقص فوق السيوف

دعت ليديا هارغريڤز في الوقت المناسب صديقتها ليزا إلى تمضية نهاية الأسبوع معها قائلة إنها كذلك ستكون لوحدها أثناء غياب كليف، وإنها ستكون سعيدة برفقتها.. ولم تدر جنيفر أي من الشابين دبر هذا الأمر. اتفقوا على الذهاب في سيارة كليف وأشارت كلير إلى أن أختها لن ترتاح أبداً في المقعد الخلفي آملة مرة أخرى أن تنسحب، لكن جنيفر رفضت إرضاء رغباتها.. وظلت مصرة على رؤية الجبال.

حين أصبحتا لوحدهما، صبت كلير جام غضبها على أختها وقالت متذمرة:

ـ لست أدري لماذا تريدين المجيء... ألا تدركين أنك غير مرغوبة؟

ذكرتها جنيفر:

ـ أنا مدعوة.. وعلى أي حال الثنائي فيه صحبة، لكن العدد الثلاثي عدد مربك.

ـ بالضبط.. وسنكون ثلاثة طوال الطريق إلى هناك وفي العودة أيضاً.

نظرت إلى وجه كلير الأشقر بشيء من اللؤم:

ـ لكن لن نكون هكذا في «غلين ماك كونال» فقد يحتاج المسكين كليف إلى بعض العزاء.

نظرت كلير إليها بخبث وقالت بحدة:

ـ أنت لا تريدين الذهاب لأجل كليف.. أعتقد أنك تظنين أن لك حق في صحبة تشايس لأنه كان لطيفاً معك.. لكن هذا لا يعطيك أي حق في

أن ترمي بنفسك عليه. إنه يقدرك لأنه يعرف أنك أقل من مراهقة صغيرة لكنه يجد افتتانك الواضح به محرجاً.

شحب وجه جنيفر أمام هذا التهجم.. وأجابت بجرأة:

- وهل قال لك هذا؟

ارتجفت نظرة كلير وأجابت بمراوغة:

- تشايس لا يفعل هذا.. إنه سيد مهذب.

قالت جنيفر بارتياح:

- إذن لا أصدق قولك إنه محرج أبداً، إنه يتقبل افتتان النساء به كما اعتاد عليه.. ثم إنه يعرف أنني لست مفتونة به.. بل بسيارته فقط..

أجبرت نفسها على الضحك:

- .. ومن الطبيعي أن نكون صديقين بعد قضائنا وقتاً طويلاً معاً قبل أن يلتقي بك.

قالت كلير بحقد:

- لن نقضي معه لحظة في «غلين ماك كونال» لأنني سأكون هناك.

كبتت جنيفر ألمها:

- أنا لا أتوقع هذا.. وهذا ما يعيدنا إلى موضوع كليف المسكين.

- لا داعي لأن تشفقي عليه.. سيكون له صحبتي هناك وعلى الطريق.. حتى ولو كنت في المقعد الخلفي.. وهذا من حقي! ثم أثناء وجودنا هناك سأكون ممتنة لو التصقت به وابتعدت عن طريقي.. عليك الاعتراف بمحاولتك التأثير على تشايس يوم ذهبنا إلى إدنبره.

تنهدت جنيفر، فالاتهام غير منصف، فهي لم تحاول أبداً إبعاد تشايس عن كلير لكن شقيقتها انزعجت لأن كليف تعمد الابتعاد بها بعد العرض..

قالت متوسلة:

- لا تدعينا نتشاجر.. أنا لا أريد الوقوف بينك وبين تشايس.. ولن أستطيع حتى ولو حاولت.. مع أنك تشكين في هذا.. لكنني أريد رؤية



الهايلاند ونحن هنا.. وهذه فرصة رائعة.

- لست أدري لماذا أنت مصممة على رؤية مجموعة من الجبال العتيقة.. لكنك كنت دائماً طفلة شاذة. وهذا هو رأي تشايس بك.. طفلة.. جنية.. لكن ليس أنثى بمشاعر امرأة.

- أعرف هذا.. لكن.. كلير..

أحست أن عليها تحذير أختها.. فأكملت:

- أنا مضطرة لأن أقول لك هذا.. في طريقنا إلى هنا ذكر تشايس أنه مرتبط.. ولست أدري ما إذا كان يعني أنه خاطب.

ضحكت كلير.. وقالت بمرح:

- على الأرجح، كان يحاول كبت أي فكرة عاطفية قد تحملينها له.. لكن حتى ولو كان هناك فتاة لها حق فيه من قبلي، فأعتقد أنني أستطيع الانتصار عليها.

- كلير.. هل هذا عدل؟

- عادل تماماً.. الخطوبة ليست كالزواج، وليس هناك من فتاة محترمة تسمح لنفسها بأن تتمسك برجل مجنون بحب امرأة أخرى.

تنهدت جنيفر مجدداً.. فمع أن من السخف القول إن تشايس ألمح إلى الخطوبة ليحمي نفسه من تحرشها به.. فصحيح، أن ما من فتاة لديها كرامة تتغابى وتجري وراء رجل يحب امرأة أخرى، وأكدت لنفسها إنها معجبة به فقط كصديق.

في الواقع كان هناك أوقات كرهته فيها، وهو متعجرف أو ساخر ولن تسامحه أبداً إذا تسبب بتحطيم قلب كلير. لكنها لم تستطع إقناع نفسها تماماً بعدم اكتراثها به، فأي تلامس معه كان يحرك فيها مشاعر مجهولة تنتظر من يبعث بها إلى الحياة.. بالمختصر تشعر أنها أصبحت امرأة، لكنه لن يعترف أبداً بهذا فهو لا زال يعتبرها طفلة غريبة الأطوار.

كان صباح يوم سبت جميل ساعة انطلق الثلاثي شمالاً في وقت متأخر قليلاً عما كانوا ينوون، لأن كلير كانت تفتعل مشكلة حول ملابسها،

وتغيرها في آخر لحظة. عرفت أن تشايس سيفضل مظهراً أنثوياً، لذا اختارت فستاناً حريرياً ناعماً، قائلة إن الطقس دافىء أكثر مما توقعت، بينما لاحظ كليف أنه ثوب غير مناسب للرحلة وهنأ جنيفر على اختيارها الجينز والتي شيرت العاديين.. لكن دون أن تسمعه كلير لحسن الحظ.

حل وقت الغداء أثناء وجودهم قرب قلعة ستيرلنغ، وعبرت جنيفر عن رغبة في زيارة القلعة، لكن كلير عارضت الفكرة بشدة، متذرعة بنفاذ الوقت. هكذا، قطعوا الخط الفاصل ما بين «النولاند» و «الهايلاند» بعد الطعام ومباشرة. واستداروا شمالاً غرباً.

أصبحت المناظر برّية أكثر، التلال، كما وصفها تشايس أكثر بروزاً، السفوح المعشوشبة تزينها الخلجان والسرخس، وتغطي منحدرات حادة تتساقط منها الشلالات بمياه بيضاء ما بين تشققات الصخور.

كان الوقت مساءً حين وصلوا إلى «غلين كونال»: فسحة خضراء متسعة ما بين التلال الحمراء القاتمة لها هندستها الخاصة، المنزل رمادي الحجارة ويميل إلى اللون الصدئي، فيه برج قتال عبث الطقس القاسي بمعالمه فأصبح مخيفاً.. إضافة إلى مبنى عصري أكثر ملحق به.. وترتفع من خلفه تلة نائتة شديدة الانحدار.

خرج تشايس للقائهم وهو يرتدي تنورة اسكتلندية وسترة من التويد الاسكتلندي.. وبدا متناسباً مع ما يحيط به. قريباً من رجليه، وقف كلب رعاة غنم اسكتلندي ضخم أبيض وأسود.

تمتم كليف وهو يساعد كلير على النزول:

ـ آه.. لقد استخدم رئيس العشيرة امتيازاته.

قفزت جنيفر من السيارة دون مساعدة أحد وتقدم تشايس إليهم مادّاً يديه:

ـ أهلاً بكم في وادي كونال.

لاحظت جنيفر يلمح البصر أن قماش التنورة «التارتان» المربع يشبه إلى حد كبير تنورة كلير وأملت أن تلحظ مدى غلطتها بارتدائها لكن كلير



نسيت المسألة وهي تمسك بكلتي يدي تشايس، تضحك بخجل:

ـ أنا مبتهجة جداً لوجودي هنا.

نظر تشايس من فوق كتفها إلى جنيفر:

ـ وأنت أيضاً.. جنيتي؟

ـ طبعاً.

كانت قد مرت بضعة أيام لم تره فيها، وبدأت دقات قلبها تتسارع لرؤيته بهذا المظهر الملوكي المهيب، وخلفه القلعة والجبل.

مشى تشايس أمامهم نحو المنزل وكلير متعلقة بذراعه، ولحقت جنيفر بهما بينما بقي كليف في المؤخرة يحمل الحقائب الصغيرة.

دخلوا إلى الردهة الحجرية المليئة بالدروع المستديرة والسيوف الاسكتلندية ذات الحدين التي تزين الجدران.. بينما تتكوم كتل من الحطب في موقد المدفأة الكبيرة بانتظار قدوم المساء وبرودته.. ومع أن اليوم يعتبر دافئاً، إلا أن داخل البرج كان بارداً جداً. أحست جنيفر وكأنها رجعت في التاريخ إلى الأيام التي كان فيها أسلاف تشايس يضجون ويمرحون في هذه الردهة الواسعة..

تطلعت كلير حولها وارتجفت في فستانها الرقيق، وعرفت جنيفر أنها تفكر بأن المكان يبدو موحشاً وبدائياً.. وتقدم كلب الرعاة إليهم يهز ذيله الكثيف فانكمشت كلير ملتصقة بتشايس تخشى أن يترك الكلب وبره على ثيابها.. لكن جنيفر مدت له يدها فشمها بحذر قبل أن يسمح لها بتلمسه.

قال كليف:

ـ إنه لا يناسب المكان.. كنت أتوقع أن أراك تحتفظ بكلب للحراسة، أو سلوقي ذئب.

ـ السلوقي الذئب غالية الثمن.. وبلاكي كلب رعاة ممتاز.

سألت جنيفر:

ـ وهل لديك غنم كثير؟ أعرف أنك تحبها.

سألت كلير بقرف:

- وكيف يمكن لأحد أن يحب الغنم؟ إنها مخلوقات غبية.

تمتم تشايس، يغمز لجنيفر:

- قد يدهشك أنني أمتلك قطيعاً صغيراً.

نظر في ساعته:

- سيقدم العشاء حين تصبحون مستعدين.. سترشدكم أليسا إلى غرفكم.

ضغط على جرس، فالمكان مزود بالكهرباء.. ظهرت امرأة صارمة المظهر ترتدي فستاناً أسود قديم الطراز ونظرت إليهم بارتياب.. وبكلمة من سيدها، رافقت ضيوفه صعوداً على سلم خشبي سنديانى رائع، وقادتهم في ممر إلى الجزء الأحدث في المنزل.

أعطيت كلير وجنيفر غرفتين متصلتين بباب مشترك.. كانتا كبيرتين منخفضتي السقف تطلان على الوادي والجبال المواجهة وأرضيتهما من الخشب المصقول مع بسط صوفية مصنوعة يدوياً.. وكان السريران حديثين، متنافرين مع ما حولهما.

وضع كليف لهما حقائبهما لاوياً فمه بسخرية، ولحق بالمرأة إلى غرفته.

أحضرت الفتاتان معهما فستانين يناسبان العشاء. فارتدت جنيفر فستانها الأخضر.. لكن كلير جاءت بفستان أبيض طويل من قماش لا يتجعد.. ودخلت على أختها بينما كانت تنهي زينتها البسيطة معطرة مزينة، مستعدة للفتنة القاتلة.. ونظرت حولها في الغرفة البسيطة الأثاث:

- أعتقد أن بالإمكان تحديث هذه.

- لكنني أعتقد أنها جميلة كما هي.

- هراء.. إنه أثاث قديم الطراز.. هل تعرفين ما إذا كان تشايس يملك منزلاً في إدنبره؟

- إنه يعيش في المقطورة حين يذهب إلى هناك.

بدا الرعب على كلير:



- أوه.. لا! لكن، لديه الآن مال عمه.. ويمكنه استئجار شقة هناك..

لم تعلق جنيفر بل تحركت نحو النافذة حيث تظهر قمم التلال سوداء أمام ألوان المغيب اللبلكية والحمراء القاتمة.. لقد بدأت كلير بالتخطيط للوقت الذي ستصبح فيه زوجة لتشايس.. وبدا من المؤكد أن العيش في «غلين كونال» لا يروق لها.. لكن جنيفر تشك في قدرتها على إبعاده عن تلال موطنه.. إنه متعلق بها كثيراً.

بدا تشايس في دور زعيم العشيرة حين نزلت إلى العشاء، وبدّل سترة «التويد» بسترة مخملية سوداء.. ووجدت جنيفر صعوبة في تشبيه عظمته الآن برفيق رحلتها إلى هنا.. بينما كان كليف ببذلته الرسمية باهتاً أمام مظهر ابن خاله، وقال باعتذار:

- آسف لأنني لا أستطيع مجاراة فخامته. لم أكن أعرف أنه سيتناول العشاء في جو رسمي.. ولم أتمكن من وضع ثياب السهرة الرسمية في سيارتي الصغيرة.

ابتسم تشايس:

- أعترف بذنب التأنق في الملابس.. لكنني اعتقدت أن السيدتين تتوقعان ألواناً محلية.

قالت كلير وعيناها تلمعان:

- أنا مسرورة جداً لهذا.. تبدو رائعاً.

أحست جنيفر أن رأيها غير مطلوب، مع أن عيني تشايس تركزتا عليها. كانت قد قالت له إنها ترغب في رؤيته بثياب «هايلاندر» مكتملة وقال إن مناسبة قد تحدث ويرتديها.. ولقد حدثت المناسبة لكنه يريد أن يؤثر بها على كلير.

قالت لكليف همساً:

- بما أننا، أنت وأنا، وضعنا في الظل.. فعلينا أن نواسي بعضنا بعضاً.

رد دون حماس:

- تبدين فاتنة.. ولم أكن يوماً من مفضلي الزي الاسكتلندي..

نظر إلى تشايس نظرة حقد:

- أفراد عشيرة ماك كونال، بالرغم من طبقتهم النبيلة، كانوا لصوص مواشي وقتلة في الأيام الغابرة، إذ لم يكن لديهم سبيل آخر للعيش في تلالهم الجرداء.

رد تشايس برصانة:

- كنا سنتعت بالغباء لو جلسنا لنموت جوعاً، بينما يعيش ملاك الأراضي المنخفضة في بحبوحة.. لكنك الآن لديك تجارة «التويد» الناجحة وعليّ أنا أن أكدح لأعيش من هذه التلال الجرداء.

رفعت كلير نظرها بسرعة:

- أتعني أنك مزارع؟

هز كتفيه:

- وما غير هذا؟

ولاحظت جنيفر أن أختها أجفلت من جوابه هذا..

لكن لم يكن هناك أي دليل على العوز في الوجبة الفخمة المقدمة إليهم داخل الردهة الكبرى، حيث كان الحطب يطقطق مشتعلاً في المدفأة المتسعة، وأنوار المصابيح حول طاولة الطعام تزيل العتمة عن الجدران السوداء.. فمع أن ضوء النهار لا زال موجوداً في الخارج، إلا أن النوافذ الضيقة لم تكن تسمح بكثير من النور..

دخلوا بعد العشاء، إلى غرفة الجلوس في الجزء الآخر من المنزل، كانت غرفة طويلة منخفضة السقف مغطاة بألواح الخشب المصقول.. بنوافذ حجرية مقوسة في جدران سميكة، ونار مشتعلة في مدفأة صغيرة.

لم يكن لدى تشايس جهاز تلفزيون لكن كان لديه راديو وجهاز ستيريو وضع فيه موسيقى اسكتلندية.. وسأل متطلعاً إلى الفتاتين كل بدورها:



- أتعرفان إحدى هذه الرقصات؟

بدت كلير مزدرية:

- أتعني رقصة «الريل» وما شابه؟ إنها ليست من النوع الذي أحبه.. أنا أحب الرقص الحديث فقط.

- إنها مسألة أذواق..

اتجه بنظرته إلى جنيفر التي كانت تضرب الأرض بقدمها مع إيقاع «هايلاند فلنك».. متذكرة الرقص الفولوكلوري الذي تعلمته في المدرسة.. دفع بضعة مقاعد إلى الوراء، ولف سجادة يبعدها عن وسط الغرفة ثم قال لها:

- هيا بنا.. لنجرب.

- أوه.. لا أستطيع.. لا أتذكر الخطوات تماماً.

- لا تخجلي.. أنت بين أصدقاء.

جذبها لتقف، ثم وقف قبالتها وبدأ يعرض أمامها بضع خطوات معقدة.. قلدته بقليل من الارتباك، ثم تملك الإيقاع بها فخلعت نعليها غير المناسبين لمثل هذا الرقص، وبدا أن قدميها ترقصان لوحدهما.. وتطاير شعرها المنفلت حول وجهها المحمرّ، بينما شعت عيناها مع نشوة الحركة.. كانت تشبك ذراعها بذراع تشايس، من وقت لآخر.. وكان، بالطبع، بارعاً في أداء رقصة بلاده.. قال كليف حين توقفت الموسيقى وجلست مقطوعة الأنفاس على الصوفا الجلدية:

- أرنا رقصة السيف تشايس.

أخذ سيفين من على الجدار ليضعهما متقاطعين على الأرض، ثم أدار الموسيقى المناسبة.. وبدا أنه يستمتع بالعرض الذي اضطر كليف إلى متابعته، وراحت جنيفر تراقب قدمي تشايس السريعتين تتحركان بين السيفين دون أن تمساهما، ثم سألت كليف:

- ألا ترقص أنت؟

- ليس لدي الطاقة لمثل هذا الرقص.. لكنه جزء من تقاليد

الهايلاندز . . والراقصون الذكور هم الأفضل دائماً .

انتهت الرقصة، وصفق النظارة الثلاثة بإعجاب بينما ابتسم تشايس باعتزاز .

ـ أخشى أن أكون قد تماديت بتفاخري مرة أخرى، لكن كليف هو الذي شجعني .

قال كليف :

ـ كان عليك تقديم عرض له علاقة بزيك التراثي .

تقدم إلى جهاز الستيريو يضع موسيقى ڤالس، ثم التفت إلى كلير :

ـ جاء دورنا .

نظرت إلى تشايس : أوه . . لكن . .

قال الهايلاندر :

ـ هيا . . أنا مقطوع الأنفاس .

لكن أنفاسه كانت طبيعية جداً .

وقفت كلير بشيء من التردد واستسلمت لذراعي كليف . . بينما جلس تشايس على طرف الصوفا إلى جانب جنيفر . . وقال لها :

ـ أنت ولدت راقصة تتحركين بليونة تماماً . . بينما أختك متصلبة .

أسعدتها كلمات مديحه، لكن سعادتها تلاشت حين أصرت كلير على أن تشايس قد ارتاح بما يكفي وشدته ليقف . وتعلقت به وهما يرقصان . كان وهج النار الأحمر يلمع على تنورتها الحمراء، وحول النور الخفيف المنبعث من المصابيح شعرها إلى خصل من ذهب . . بدت رقيقة نحيلة أمام جسد تشايس القوي الطويل . . وفكرت جنيفر مجدداً أنهما مناسبان لبعضهما . . وسمعت تشايس يقول وهما يمران بقربها :

ـ يعجبني فستانك الأبيض . . لو أنك ارتديت وشاحاً مربع التخطيط معه، لبدوت وكأنك إحدى فتيات العشيرة اللواتي يأتين إلى قاعة اجتماعاتنا العشائرية .

سأل كليف :



ـ أتريدين الرقص جنيفر؟

هزت رأسها نفياً :

ـ لا أعتقد أن هناك مكاناً لثنائي آخر .

قال بصوت مرير :

ـ هذا صحيح .

عندما انتهت موسيقى الڤالس، وقف كليف يقول إن لديه بضعة أشياء يعرضها . وتقدم إلى جهاز بيانو موضوع في الزاوية وجلس إليه، ثم بدأ يعزف ويغني . .

قالت كلير مع انتهائه :

ـ هذا جميل . . لكنها أغنية حزينة، مع أنك أحسنت غناءها في النهاية .

قال تشايس وعيناه تلمعان :

ـ السبب هو إرشاد نور الحب له . . الحب شيء رائع يوصل دائماً إلى النهايات السعيدة . . هذا عندما يكون متبادلاً بالطبع .

نظر إلى جنيفر وكان لا زال جالساً على طرف الصوفا إلى جانبها . . فقالت له :

ـ أنت مخطىء تماماً في هذا . . كم من مأساة تراجيدية كُتبت عن الحب المتبادل خاصة مع وجود العوائق؟ يقول الشعراء إن طريق الحب الصحيح لا يكون سهلاً أبداً .

ـ لا بأس، طالما أنه يصل إلى هدفه . . ماذا يهم؟ بضع عقبات تعطي النكهة للعبة .

قالت بصوت منخفض، لئلا يسمعه الآخران :

ـ وهل الحب لعبة بالنسبة لك؟

رد بخفة :

ـ لا أريد أن أحطم قلبي . .

واتجهت عيناه نحو كلير التي انضمت إلى كليف عند البيانو . . وقال

كليف يضرب لحناً:

- تعرفون كلكم هذه.

واختلط صوت تشايس العميق مع صوته الرقيق وهما يغنيان معاً.. ثم علق كليف بعد انتهاء الأغنية:

- لم يكن لشاعرها نهاية سعيدة.. ذلك الشيطان المسكين. كان مصيره قطع الرأس بالفأس، كما يخبرنا التاريخ.

غاصت جنيفر في أعماق قلبها الحزين وتنهدت بألم.. كم كانت سعيدة بعيدة عن الهموم.. قبل أن يوقظ تشايس الشوق الجديد الغريب في داخلها والذي لم تستطع فهمه تماماً حتى الآن.

كانت كلير تهمس إلى تشايس ووجهها مرفوع إليه فقال لها:

- ستبردين.. وتعرفين هذا.

- ألا يمكنك أن تقرضني ذلك الوشاح التقليدي الذي ذكرته؟

- أعتقد أنني قد أجد واحداً هنا.

وضعت يداً ملحة على كم سترته: تعال إذن.

وتحركت نحو الباب، تقول للآخرين:

- سيريني تشايس الوادي تحت ضوء القمر.

خرجا إلى الردهة، فاستدار كليف من فوق كرسي البيانو وقال بخشونة:

- هجرانا.. كلير لا تسعى وراء رؤية الوادي تحت ضوء القمر.. إنها لا تهتم أبداً بالمناظر.. وهما ليسا متناسبين حقاً.. فأختك كقطة صغيرة تحب العيش الناعم والفخامة العصرية.. وبإمكاني أن أعطيها كل ما تشتهي.. لكن تشايس لن يستطيع ولن يريد.. يعني هذا الحصن القديم الكثير له، وهي تكره هذا المكان حتى وإن بدت هادئة الآن.

ضرب مفتاحين على البيانو بنغمتين حادتين:

- أنت تناسبينه أكثر بكثير.

تنهدت جنيفر:



- لا أظنه يفكر بما هو مناسب، فالأحبة لا يفعلون هذا.. إنه مفتون بجمالها وهي فعلاً جميلة، أليست كذلك؟

ابتسم كليف للهجتها الحزينة:

- إنها شخصية مزخرفة، وهو مثلها.. أنت وأنا لن نستطيع منافستهما.

- لست أدري ما تعنيه.. أنا لا أحاول المنافسة.

قال بلطف:

- لا شك أنك تحاولين دائماً بوجود أخت كهذه.. إنها لاتعطيك فرصة، أليس كذلك؟

ردت بهدوء:

- أنا لا أسعى إلى فرصة.. فهناك أشياء كثيرة في حياتي ولست مضطرة للجري شوقاً وراء رجل لا يريدني.

ارتجف صوتها بالرغم من تأكيدها الشجاع.. فقال موافقاً دون تركيز:

- أجل.. يمكن للمرء أن يجد مواساة في هذا.

وقف عن كرسي البيانو الدوار، وأخذ الوسادة من تحته رامياً إياها بعنف:

- اللعنة على كل شيء..! كانت حاضرة للقبول بي إلى أن جاء، لمَ لم يبق بعيداً حتى موعد إعلان الخطوبة؟

قالت جنيفر بوقار:

- إنه القدر.. لقد التقينا صدفة في إدنبره.. ثم بعد أن رأى كلير بالطبع..

هزت كتفيها.. فقطب كليف:

- مع ذلك، لا أظنه جاداً.. ولا أصدق أن تشايس مستعد للتفكير بالزواج.. إنه يهوى العبث مع الفتيات الجميلات.. لكنه كان دائماً يعد نفسه قبل أن يلتزم.. وأعرف أن لديه نساء أخريات في انكلترا.

- قال لي مرة إنه.. مرتبط.

- أعتقد أنه كان يلمح بهذا إلى أنه غير متوفر لأحد.

احمر وجه جنيفر غضباً.. لقد كانت مرتابة حول جدية تشايس..

وصاحت بعنف:

- لو أنه آلم كلير.. فسوف.. سوف أقتله!

نظر كليف إليها متسائلاً:

- مع أنك تريدينه لنفسك؟

غمرها الارتباك:

- أنا لا.. أعني.. هل الأمر واضح؟

- لا.. لكن أعتقد أنني بعيد النظر.

وبدأ يذرع الغرفة:

- ماذا عن الغد؟ هل أنت مستعدة لقضاء النهار بطوله تراقبين عصفوري الحب يتناغيان ويتوددان؟ هذا أكثر مما أحتمل.

- وماذا نستطيع أن نفعل؟

- بإمكاننا الخروج.. الابتعاد عن كومة الحجارة الكريهة هذه.

- أتعني.. معاً؟

- ولمَ لا؟

- لكن.. هل سيكون هذا تصرفاً مهذباً؟

تقدم ليقف أمامها:

- لن يفتقدنا أي منهما.. قلت إنك ترغبين في تجربة سيارتي.. ولسوف تحصلين على هذا، إنها تنطلق كالقنبلة.

سألت بلهفة:

- وهل ستثق بي حقاً؟ تشايس لم تعجبه قيادتي للفوكسهول.

- إذن كيف أقنعته؟

بدت المراوغة على جنيفر:

- هل لنا أن نقول.. إنني مارست بعض الابتزاز؟



ضحك عالياً:

- أنت فتاة رائعة جنيفر.. اتفقنا إذن؟ سنخرج معاً بعد الفطور، ونتركهما لمشاريعهما.

لم تحب جنيفر اللمعان الشرس في عينيه، لكنها لا ترى أي خطر عليها من هذه الخطة.. فليس لديه نوايا غرامية نحوها ولا يحركه سوى الانتقام.

قالت:

- أظنها فكرة جيدة.

بدأت تشعر بالنعاس بعد هذا اليوم الطويل، فاقترح عليها كليف أن تذهب إلى النوم. فوافقت وتمنت له ليلة سعيدة. وهي تصعد السلم دخلت كلير برفقة تشايس، كانت تلف جسمها بوشاح التارتان الخاص بعائلة كونال، وبدت مغتاظة بينما ظهر على وجه تشايس تعبير كالح، وسأل حين رآها على السلم:

- هل ستنامين باكراً؟

- أجل.. الوقت متأخر، وأنا متعبة.. لذا أرجو أن تعذروني، عمت مساء تشايس، عمتِ مساء كلير.

وتابعت طريقها دون نظرة إلى الخلف، مع أنها اعتقدت أن تشايس ناداها وسمعت ضحكة كلير الحادة.

فتحت النافذة في غرفتها واستندت إليها تراقب هدوء الليل.. كان نور القمر يلوّن الأرض بلون الفضة، ويسبغ على التلال البعيدة لوناً نيلياً قاتماً تحت سماء صافية.. وبدا الجو هادئاً ساكناً وسط هذا الظلام. فجأة التقطت أنفاسها، فقد تراءى لها شكل ما يتحرك بحذر نحو الساقية ليشرب.. إنه إيل ذو قرون متشابكة.. غزال أحمر ضخم.

راقبت المخلوق المهيب دون حراك، إلى أن شرب ثم اختفى في الظلام بصمت كما جاء.

أبعدت هذه الحادثة الصغيرة أفكارها عن الاثنين اللذين تركتهما في

الردهة، لكنهما عادا الآن ليحتلا محور تفكيرها.. ما الذي حدث بينهما ليكونا منزعجين هكذا؟ هل حاولت كلير دفع تشايس إلى إعلان حبه فصدها؟ بدا هذا غير معقول.. لكنه اسكتلندي عنيد، ولربما استاء من استعجال خطوته.

كما قالت لكليف، إنها فعلاً على استعداد للقتال من أجل أختها ولو ضد مصلحتها.. ولأنها تعلم ألا فرصة لها مع تشايس، فهي مستعدة لتقبل خطوبته إلى كلير بكل طيبة خاطر.. لقد أثارت تعليقات كليف اضطرابها.. لكن كلير أكدت لها قدرتها على الفوز به ولم تكن طيبة مع أختها بشأنه.. وربما السبب هو الغيرة، وجنيفر تعرف جيداً من أحاسيسها هي، مدى سهولة اشتعال نار الغيرة.

من سخرية القدر أن تضطر للدفاع عن أختها.. لكن إن حل ليل الغد دون تطورات جديدة، فستسأل تشايس عن نواياه وتعطيه رأيها فيه بصراحة.

ابتعدت جنيفر عن النافذة، ووقفت مصغية عند باب كلير. لم يكن هناك أي صوت آتٍ من الداخل.. كانت تتوقع أن تدخل أختها عليها لتفضي إليها بما حدث وتستمتع بسرد انتصارها.. وأن لا تفعل هذا فهو نذير سوء.. أدارت مقبض الباب المشترك دون صوت مسموع، ونظرت إلى الداخل.

كانت كلير في السرير، وأشار صوت مكتوم إلى أنها تبكي. صاحت جنيفر:

ـ كلير!.. أوه كلير! ما الأمر حبيبتي؟

جاء الرد المخنوق:

ـ لا شيء! ابتعدي عني!

ـ لا أستطيع تركك هكذا.. ما الذي كدرك؟ تشايس؟

جلست في السرير فجأة.. وأظهر نور القمر الداخل من النافذة شحوبها، وقالت:



ـ إنه متوحش!

ـ وماذا فعل لك؟

صاحت بعنف:

ـ لا شيء! وهذا كل ما في الأمر.. لم يقل أو يفعل شيئاً.. تجولنا في المكان الموحش والحجارة تؤلم قدمي.. بينما هو يلقي محاضرة.. أجل هذا هو الوصف بالضبط.. يلقي محاضرة عن العشائر وتاريخها.. وكأنني أهتم!

كبتت جنيفر ضحكة:

ـ إنه يغالي في حبه للتاريخ.

أعلنت كلير بازدراء:

ـ لكن الرجل لا يصطحب الفتاة تحت ضوء القمر لمجرد الكلام عن التاريخ.. حتى كليف لا يمكن أن يكون بهذا الغباء.. وبالحديث عن كليف.. إذا استطعت إبعاده في الغد فسأكون ممتنة لك كثيراً.. عليّ أن أصل مع تشايس إلى نتيجة قبل أن نعود، وسأفعل.. من كان يظن أن مثل هذا الرجل المفعم بالرجولة يمكن أن يكون متصلباً هكذا؟

ـ ربما لا يحب أن يستعجله أحد.

ـ إنه لغز محير.. بدت الأمور على ما يرام بعد العشاء، لكنه لم يكمل الطريق.. أتظنين أن هناك فتاة أخرى؟

ـ لن تكون مثلك.

ـ بالضبط.. حسناً، لقد تعاملت مع متبلدي الفكر من قبل.. لكنني لم أتوقع أبداً أن يتصرف تشايس مثلهم.

قالت جنيفر مواسية:

ـ لديك الغد بطوله.. سأخرج مع كليف، وهكذا يصبح الجو خالياً لك.

سألت كلير بلهفة:

ـ حقاً؟ هذا عظيم.. لنفكر بالأمر جنيفر.. لديك فرصة هنا.. قد

نصلين إلى الارتباط به.

ـ شكراً لك.. لكنني لا أريده ولا أي رجل آخر.. أنا سعيدة هكذا.. وسأصنع لنفسي مستقبلاً مهنياً.. أليس هذا ما نصحتنا به فرانسيس بالمر؟

ـ تلك المرأة حمقاء.. عمت مساء حبيبتي.. وشكراً لك.

قبلتها جنيفر وخرجت.. كانت متفقة تماماً مع أختها حول سخف نظريات الآنسة بالمر.. ولا تستطيع التفكير بطريقة أروع من قضاء بقية العمر وهي تدير منزل تشايس وتحمل بأولاده، وتكون مذعنة لرغباته.

لكن هذا لن يحدث أبداً.

حاولت دفع تشايس بعيداً عن أفكارها، وركزت على رحلة الغد مع كليف.. ستشاهد المزيد من الأماكن في هذه البلاد الجميلة وسوف يسمح لها بقيادة سيارته.

لكنها لم يكن لديها أي إدراك مسبق للأحداث غير المتوقعة التي يخبئها الغد لها.

* * *



## ٨ ـ زوجة بالخطأ

استيقظت جنيفر باكراً في الصباح التالي مع شعور بالاكتئاب، وأدركت أن السبب في ذلك هو وعدها بقضاء اليوم مع كليف.. فقد كانت تفضل البقاء في غلين ماك كونال واستكشاف ما يحيط بها ولو لوحدها.

إنه موطن تشايس ومنزله، ولهذا له صفة عاطفية عندها.. تريد أن تطيل البقاء في الأمكنة التي أصبحت مقدسة لوجوده فيها.. مع أن المسافة بينهما، كما بدت ليل أمس، أصبحت أكثر اتساعاً.. فكلير، لم تفسخ فقط صداقتهما بل إنها اتخذت لنفسها مركزاً جديداً.. والسيد الموقر في ثوب الهايلاندر، كان شخصاً مختلفاً عن رفيق رحلتها إلى اسكتلندة.. حتى عن ذلك الشاب الذي التقاهم في إدنبره.. لقد أصبح لورد أوف غلين كونال.. بمجرد وضع قدميه فوق أرض حقول بلاده.

صحيح أنها لم تكن تتوقع الفوز بأكثر من صداقته وهي ممتنة لتقديره لها.. لكن كلما ابتعد عنها أكثر كلما زادت قوة جاذبيته لها.. إنه ليس الرجل نفسه فقط الذي يجذبها بل منزله أيضاً وما يحيط به حتى طريقة عيشه.. فهي على عكس أختها، لطالما ناقت إلى الحياة في الريف.

كانت قد رفضت حتى الآن الاعتراف بطبيعة مشاعرها نحوه.. لكنها واجهت في هذه الساعة المبكرة واقع أنها وللمرة الأولى في حياتها وقعت في الحب.. وأن هدف عاطفتها أبعد من منالها.

حسناً.. لقد حدث هذا من قبل، وسيحدث مرات عديدة بعد.. إنها ليست الوحيدة التي منحت قلبها دون أن يسعى إليه أحد، وهي تفعل شيئاً

فراشة المحبة
www.liilas.com

متعقلاً بخروجها مع كليف.. فهل هذا صحيح؟ هل من حسن الأخلاق الإعداد لرحلة دون استشارة المضيف؟ من غير المحتمل أن يجد تشايس عيباً في تخطيط سيسمح له بالبقاء لوحده مع كلير.

كانت تأمل حين نعود من نزهتها مع كليف أن يستقبلها تشايس كصهر المستقبل. إنها تحب أختها، ولن تقوم بأي محاولة لمنع سعادتها.. لقد كانت العلاقة بين الشقيقتين غريبة.. فبالرغم من فارق السنوات بينهما واهتماماتهما المختلفة، كانت كلير معتمدة على جنيفر.. وكان لجنيفر إحساس حماية نحو أختها نظراً إلى أن ما تعرفه من الحياة لا يتعدى الزينة، أما الأمور العملية فهي عاجزة أمامها تماماً. ومع أن الأم والابنة تعتمدان معاً على الابنة الصغرى، حتى في الأمور التي تقع عادة على عاتق رجل البيت، إلا أنهما كانتا تعاملانها بطريقة لامبالية.

كانت قد سمعت أن تشايس يتعامل بخفة مع الحب ويعتبره لعبة.. ولو حطم قلب كلير، فلن تسامحه أبداً.. والأكثر من هذا، ستخبره بصراحة عن رأيها به وبتصرفاته. صحيح أن هذا لن يساعد كلير في شيء، لكنه على الأقل سيصيب غروره وثقته بنفسه.

على أي حال، من المحتمل أن تكون قد أساءت الحكم عليه وما سيحدث اليوم سيكشف حقيقة نواياه.. وكما وعدت، ستترك الميدان خالياً أمام كلير..

نظرت في ساعتها ورأت أن الوقت لا زال مبكراً فقررت استخدام الحمام قبل استيقاظ الآخرين.. وهي تمر بالقرب من النافذة، نظرت إلى الخارج نحو الغدير الأزرق القاتم كلون السماء، لكنها لم تجد أثراً للأيل الذي شرب منه ليلة أمس تحت ضوء القمر.. ثم حبست أنفاسها، مع خفقان قلب مألوف تسببه له رؤية تشايس. لم يكن يرتدي شيئاً من ثيابه التقليدية هذا الصباح بل كان يرتدي بنطلوناً وكنزة.. وأجفلت، تستعيد ذلك الصباح الباكر الآخر، عندما قام بطهو الفطور لها وكانت هي مستاءة من المحاضرة الأخلاقية التي أسمعها إياها.. وتستطيع أن تضحك لهذا



الآن ولسخافتها حينها. كيف خطر ببالها أن تقنعه بأن ليس حسيساً؟

لم يكن تشايس لوحده، كان يرافقه رجل عجوز يلحق بهما كلب الرعاة. لاحظت جنيفر أنهما يسيران بسرعة وخمنت أن طارئاً ما قد حصل، وربما بين القطيع. تمنت لو تستطيع أن تركض خلفهما وتعرض المساعدة، لكنها لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد.

استحمت ونزلت إلى الأسفل قبل كليف وكلير. خرجت إلى الهواء الطلق تنظر حولها، كان هناك فسحة صغيرة مهملة في الحديقة، أفسد سرب من الدجاج مساكب الزهور فيها حيث راح يتمتع بحمام غبار.. ورأت صفاً من البط يسير بسعادة نحو الماء. واضح أن الدواجن في غلين كونال ليست مسجونة ضمن سياج من الأسلاك.. واغتبطت جنيفر لرؤيتها تتمتع بحريتها.. نظرت إلى الأرض المرتفعة التي اختفى تشايس فيها مع مرافقه لكن لا أثر له أو للكلب.

أبلغتهم اليسا وقت الفطور باعتذاره منهم.. فلقد وقعت نعجة في شق صخري واستدعي لإنقاذها، وأخبرتهم أنه سيعود قبل الظهر.. أعلنت كلير التي كانت قد تزينت بشكل بارز، وارتدت فستانها الحريري، أنهم لن يتناولوا الطعام إلى أن يعود، لكن اليسا قالت إنها لا تستطيع الاحتفاظ بالطعام ساخناً أكثر من هذا وإن عليها تنظيف المطبخ قبل الذهاب إلى الكنيسة، وأبلغتهم أن السيد سيتناول شيئاً من الطعام في المطبخ حين يعود.

لم يكن لدى كليف رغبة في تأجيل تناول الطعام، فابتدأ بقصعة الحساء الساخن المقدمة إليه، وهو ما امتنعت عنه كلتا الفتاتين.. وعبثت كلير بقطعة توست بينما فضلت جنيفر بيضة مقلية.

ما إن غادرت اليسا الغرفة، حتى قالت كلير ساخطة:

ـ أنا متعجبة من أمر تشايس.. تصوروا أنه يترك ضيوفه من أجل إنقاذ نعجة بائسة!

قال كليف:

- يمثل الغنم هنا اللحم والصوف.. ولا يستطيع تشايس تحمل خسارة الاثنين معاً.

كان في عينيه بريق خبيث، فلقد أسعده سخط كلير.. وصاحت جنيفر:

- بالطبع هو مضطر لإنقاذ المخلوق المسكين.. وأرجو ألا تكون مصابة بأذى.

- أوه.. يا لانزعاج البهيمة.

رد كليف على كلير:

- لديه رعاة بكل تأكيد إذ لا يمكنه إدارة هذا المكان لوحده، ولا شك أنه قادر على إنابة عملية الإنقاذ إلى عامل عنده.

قالت جنيفر واثقة:

- لن يفعل هذا.. تشايس رجل من النوع الذي يقوم بكل شيء بنفسه.

وتوقعت أن تسألها كلير عن سبب دعمها لتشايس، لكنها كانت مشغولة البال.. لقد أعطتها ملاحظة كليف بعداً جديداً لأفكارها.. وأدار اهتمامه إلى جنيفر:

- هل ستكونين جاهزة للخروج خلال نصف ساعة؟ سأطلب من مدبرة منزل تشايس أن تحضر لنا السندويشات.. فمن الصعب وجود مطاعم أو مقاهي في هذا الجزء من البلاد، وإذا وجدت فهي مغلقة أيام الأحاد.

قالت جنيفر بشيء من الارتياب:

- لا أظن أن علينا الخروج دون إعلام تشايس.. ثم إن كلير ستبقى لوحدها.

قالت كلير:

- لا يمكن لتشايس أن يتوقع منكما انتظار عودته.. ومن المؤسف تضييع يوم رائع كهذا.. سأكون على ما يرام لوحدي.. أريد فقط أن أجلس باسترخاء هنا وسأشرح له أنكما قررتما الخروج.



بدت متلهفة للخلاص منهما وكانا على إدراك تام لدوافعها.. حين يعود تشايس، سيكون لديها أسئلة كثيرة حول مصير النعجة وستخبره أنها استاءت كثيراً من الحظ السيء الذي أبعده باكراً، خاصة خلال زيارتهم القصيرة، وقدّرت جنيفر أنها قد تسعى كذلك إلى معرفة بعض المعلومات عن عماله وطريقة إدارة المكان، كي تعرف مدى ارتباطاته هنا.

لم يكن تشايس قد ظهر بعد مع ركوبهما في السيارة الصغيرة.. وسألتهما كلير عن المكان الذي سيقصدانه فقال كليف:

- سنتجول أينما تقودنا الطريق وسنذهب حيثما يوصلنا هوانا..

أحست جنيفر بالارتياب، فكلامه يبدو غامضاً. وتمنت ألا ينتهي بهما الأمر بأن ينقطعا في منطقة بعيدة دون أن يعرف أحد بمكان وجودهما.. لكن شعورها هذا ما لبث أن تبدل ليحل مكانه إحساس بالمغامرة.. حين أصبحا على الطريق الرئيسية نسيت كل شكوكها، وراحت تستمتع بالمناظر الرائعة التي كانا يمران بها.

قاد كليف السيارة دون الرجوع إلى خريطة.. كان في مزاج متهور، يتعدى حدود السرعة..

كانت تبرز أمامها بعض اللوحات على الطريق وتعطيهما لمحة عن مكان وجودهما.. ووجدت جنيفر أن كليف لم يكن يعرف المنطقة، أسرعا يتسابقان مع الريح صعوداً ونزولاً عبر طرقات شديدة الانحدار، وعلى طول جوانب غدران تحت الجبال الضخمة التي لم يستطع تعريفها.. وتعرضا لأكثر من مخاطرة، ومرّ بهما سائقون ودراجون نظروا إليهما نظرات سوداء.. لكن كليف بدا وكأنه غافل ولم تكن جنيفر متوترة بسبب مخاطر الطريق، ولا بالمزاج المجنون الذي أصبحت عليه.. ولم تعد تهتم كثيراً بما يحدث لها.

تناولا الغداء قرب ساقية ماء تحت شجرة تنتشر حولها أزهار البرية..

وأخبرته جنيفر عن الأيل الذي شاهدته ليل أمس.. وسألت:

- هل يوجد غزلان كثيرة هنا؟

- قليل جداً على ما أعتقد.. مع أنني أعجب لوجود هذا الأيل في غلين كونال، فهو صيد جيد..

- يا للعار! إنه جميل جداً.

وتمنت ألا يكون تشايس يحب اصطياد الأبائل.

- يجب أن يبقى عددها قليلاً، وإلا فستجتاحنا..

غيرت جنيفر الموضوع بسرعة.

بعد الطعام، صدق كليف بوعده وتركها تقود السيارة مما دعاها إلى مسامحته على قساوته نحو الغزلان.. وغمرتها نشوة كاملة وهي تحس بالقوة الكامنة تحت غطاء المحرك المستجيبة لسيطرتها.

وحذرها كليف:

- كوني حذرة الآن، أنت تسيرين بسرعة مئة والطريق ضيق.

خففت سرعتها على مضض:

- لكنك كنت تقود أسرع مني.

ضحك: لأنها سيارتي.

- سأمتلك واحدة مثلها في يوم ما.

- لن تمتلكي شيئاً إذا تزوجت من تشايس.

أحست بالألم لتعليقه غير اللطيف، وقالت:

- تعرف جيداً أن تشايس ينوي الزواج من كلير.

- هناك الكثير من العقبات.

- لن يكون هناك، حتى ولو اضطررت أن أقول له ما هو متوقع منه.

- إذن أنت مستعدة لتحمل أمر الدفاع عن أختك؟ ستجد فيك بطلة مخلصة.. بدأت أشفق على تشايس.

تذكرت دموع كلير ليلة أمس فقالت بحدة:

- لا داعي للإشفاق عليه.. الرجل الذي يثير وعوداً لا ينوي الوفاء بها، لا يستحق الشفقة أبداً.

- ستتمكن من الالتفاف حوله.. بعض الرجال يملكون الحظ كله.



داست جنيفر على دواسة الوقود ولم يعترض كليف هذه المرة.

وكما تكهنت أليسا، تبدل إشراق النهار وتسارعت غيوم رمادية لتنتشر في السماء الزرقاء.. وبدأ الضباب يحجب الجبال.. عاد كليف وراء مقوده ونظرت جنيفر حولها ببعض الخوف.. ثم سألت متوترة:

- أتعرف أين نحن؟

- لا فكرة لدي أبداً.

أغضبها عدم اكتراثه:

- من الأفضل أن ننظر إلى الخريطة.

- إنها في الصندوق.. ولا أعتقد أنها قد تساعدنا كثيراً.

نظرت إلى عداد الوقود.

- لم نرَ محطة وقود منذ أميال.

- من المؤكد أن نصل إلى إحداها قريباً.

في الضباب المتكاثف، اضطر كليف إلى القيادة ببطء وحذر، ولم يظهر أمامهما أي مبانٍ سكنية، وانقلب سخط جنيفر إلى قلق..

لم يكونا قد وصلا إلى أي محطة وقود أو كاراج حين توقفت السيارة أخيراً، ولم يريا أي منزل حولهما.. خرج كليف من السيارة للاستكشاف، وطلب من جنيفر أن تبقى في داخلها.. وبدت حولهما الآن بضع أشجار على جهة من الطريق خلف سور حجري، رؤوسها مخبأة في الضباب.. من الناحية الأخرى للطريق، كانت الأرض تمتد نزولاً حتى المياه.

وعاد كليف.

- هناك طريق ترابية إلى اليسار يبدو أنها تصل إلى مزرعة، وسأذهب لأرى ما إذا كان بالإمكان الحصول على مساعدة.. ربما نستطيع دفع السيارة حتى مدخل ذلك الطريق..

نزلت جنيفر إلى الطريق، ترتجف للهواء الرطب.. وجّه كليف السيارة نحو البوابة وأدار مفتاح التشغيل.. فقفزت السيارة بضع خطوات

إلى الأمام، ثم مع انحدار الطريق قليلاً تمكنا بجهد مشترك من دفعها بعيداً. جعل التمرين جنيفر تشعر بالدفء، وطلب كليف منها العودة إلى السيارة بينما يذهب هو ليجد المزرعة.

مضى على ذهابه بعض الوقت وبدأت جنيفر تشعر بالخوف، كان الصمت المطبق يحيط بها وهي لا ترى أي مخلوق حي.. فكرت أنه موقع مناسب تماماً للمخلوقات الخارقة للطبيعة، وتشوقت لعودة كليف، فهي لم تشعر من قبل بمثل هذه الوحدة المخيفة دون حماية.. وتسابقت الأفكار المخيفة إليها.. لنفترض أنه لم يعد.. لنفترض أنه واجهه حادثة ما أو أنه هجرها؟ ماذا يمكنها أن تفعل؟ أين يمكنها أن تذهب؟ رأت أخيراً طيفه يظهر من بين الضباب، فوجدت راحتها الشديدة متنفساً في صيحة ترحيب فرحة:

ـ شكراً لله على مجيئك.

دخل السيارة ورأت أن شعره وكنزته مبللان برطوبة الضباب، وسألها:

ـ لم الذعر؟ لم أتأخر.

ـ بدا لي الوقت دهراً.. المكان مخيف هنا.. حسناً ماذا حدث؟ هل وجدت أحداً؟ هل اكتشفت أين نحن؟

ابتسم:

ـ حضري نفسك للصدمة.. نحن بعيدون جداً عن الطرقات المأهولة.. ويقع أقرب كاراج فيه وقود على بعد ميلين، وكذلك الهاتف.

اتسعت عيناها رعباً.

ـ وغلين ماكونال؟ كم تبعد؟

ـ حوالي الخمسين ميلاً.

ـ أوه.. يا إلهي.. ماذا سنفعل؟

ـ لا نستطيع شيئاً قبل جلاء الطقس.. لقد عرض علينا العجوزان الطيبان في المزرعة الملجأ وشيئاً نأكله. كوخهما الصغير هو مكان



خرب، لكنه أفضل من قضاء الليل في الخلاء.

ـ الليل؟ أوه كليف.. هل علينا أن نقضي الليل هنا؟

ـ هذا ما أخشاه.. على الأقل يجب أن نكون ممتنين لوجود سقف يغطينا.

تنهدت جنيفر طويلاً، نادمة بشدة على استسلامها لرغبات كليف المتهورة.. كان يجب أن تصر على تفحص مكان وجودهما على الخريطة.. فإذا لم يتصلا بغلين ماكونال، فسيفترض من فيه أنهما تعرضا إلى حادثة وبالرغم من انشغال كلير بتشايس فلا شك أنها ستقلق.. ومع أن من الصعب السير خمسين ميلاً، إلا أنها قد تتمكن من السير ميلين إلى الكاراج لإحضار الوقود أو الاتصال بالهاتف إذا رفض كليف الذهاب.

قالت:

ـ عليّ أن أبلغ كلير أنني بخير.. إذا كان الهاتف لا يبعد سوى ميلين، فأنا واثقة من قدرتي على السير إليه.

ـ في مثل هذا الطقس؟ لا.. لن تفعلي شيئاً كهذا. سنضيعين على الأرجح.. ثم إن الهاتف ليس سوى كشك عام.

ـ قد يرسلون أحداً لمساعدتنا.

ـ ما من أحد يستطيع إيجادنا في مثل هذا الطقس.. على أي حال قد يكون الكاراج مقفلاً.. فاليوم هو الأحد..

كانت جنيفر متأكدة أن تشايس لو كان هنا، لوجد حلاً بدل القبول بضيافة المزارعين.. لكن تشايس ما كان ليتسبب لنفسه بمأزق كهذا.. وكليف ليس مستعداً للسير ولن يسمح لها، وربما هو حكيم بهذا القرار.

قالت باستسلام:

ـ حسن جداً.. دعنا نذهب.

بدا الحرج على كليف:

ـ مهلك لحظة جنيفر.. أنا.. أوه.. اضطررت للقول لهما إنك.. أحم.. زوجتي.

نظرت إليه بذهول: ولماذا؟

- مضيفنا واسمه ماك بارك بدا لي وكأنه أحد الكهنة.. وبما أنني لم أرغب في أن يطردني.. بدا لي من الأفضل ادعاء أننا متزوجان.. هكذا نكون محترمين أكثر.. ألا توافقيني على هذا؟

ضحكت جنيفر متوترة:

- لا أرى أن هذا كان ضرورياً.. بكل تأكيد السيد ماك بارك ليس رجعياً لدرجة ألا يعرف بإمكانية تجول شاب وفتاة معاً دون زواج.

- بالتأكيد لكنه بدا وكأنه يعتبر هذا انفلاتاً أخلاقياً.. لكن لم كل هذه الضجة جنيفر؟ ما عليك سوى تمثيل دور السيدة هارغريفز لساعات قليلة.

- لا يعجبني هذا.. أعني.. حسن جداً، ماذا عن النوم؟

ضحك عالياً:

- أهذا ما يقلقك؟ أتخشين أن نوضع في سرير واحد؟ لا بأس بهذا جنيفر.. ليس لديهم غرفة إضافية.. كل ما سنحصل عليه هو مقعدين قرب النار.

كانت جنيفر قد بدأت تشعر بالبرد.. بدت برودة الضباب الثلجية وكأنها تخترق عظامها.. ولم يفكر أي منهما بإحضار معطف معه.

فتحت باب السيارة قائلة: حسن جداً.

- مهلك لحظة.. ألديك خاتم؟

- وهل أحتاج إلى خاتم فعلاً؟

جذب خاتماً من إصبعه الصغير:

- ربما بإمكانك وضع هذا، وقلب رأسه إلى الداخل؟

أخذ يدها اليسرى ودسه في إصبعها الثالث، ولم يدخل بسهولة رغم صغر يدها:

- لا أعتقد أنني سأتمكن من خلعه مجدداً.

قال:

- ليس الأمر مأساة.. هل من الإثم أن تستعيري خاتمي؟



عاد إليها تعقلها ورمقته بابتسامة، ثم قالت بمرح:

- كم أنا سخيفة.. لكن لدي نظرة رومانسية لهذا الإصبع. على أي حال.. لا أعتقد أن أحداً غيرك قد يرغب في وضع خاتم فيه.. لذا سأكون فخورة بخاتمك.

بدا القلق على كليف:

- إنه لليلة واحدة.. بالطبع.

- اطمئن لن أعلق عليه آمالاً.

- هذا ما أرجوه.

وكان رده محموماً، مما جعل جنيفر تشعر بالغضب. لا داعي لأن يوضح أنه يعتبر خطوبتها له كارثة.. لكنه لم يكن قد تخلى بعد عن أمله في كسب ود كلير.. وهي بدورها كانت مترددة بالقبول بهذه التمثيلية بسبب تشايس.. وجعلها تشابه وضعيهما العاطفيين تلين نحوه.. وقالت:

- من سوء حظك أن هذا لم يحدث ومعك كلير.

لم يقل شيئاً.. وانتظرت إلى أن أقفل السيارة ثم وضع ذراعه في ذراعها وبدأ في الصعود إلى المزرعة.. وقال لها:

- من الأفضل أن نلتصق معاً.. لا أريد أن أفقدك في هذا الضباب. أنت فتاة لطيفة جنيفر.. ربما لو لم ألتقِ بكلير..

لم ينه جملته بل تركها تدرك مضامينها.. وتذكرت جنيفر تعبير «الفتاة اللطيفة» الذي عبر به تشايس عن رأيه بها.

كان الزوجان ماك بارك، عجوزين ترك أولادهما المكان منذ زمن طويل للبحث عن أعمال جديدة، بينما بقيا مصممين على التعلق بمملكتهما الصغيرة طالما من الممكن السكن فيها.. وفهمت جنيفر سبب امتناع كليف عن الاعتراف بأن الفتاة التي معه هي مجرد صديقة، حالما رأت الرجل العجوز.. كان في عيني ماك بارك ومبض متعصب تحت حاجبين كثيفين.. وجهه المجهد مكسو بلحية طويلة رمادية.

بعد التأكد من وضعهما الشرعي، حياهما العجوز بأدب وقور مع أنه أبدى عجبه لأن كليف لم ينتبه لدلائل الطقس بشكل صحيح، وبهذا عرّض نفسه و «حرمته» للخطر. فهو بنفسه وقد أمضى عمره بين الجبال حساس لأي دليل على التغيير.

بدت زوجته نشيطة بالرغم من انكماشها وانحنائها تحت ثقل السنين، وحياة العمل القاسية.. قدمت لهما لحماً مسلوقاً، وخبزاً بيتياً، زبدة وجبن.. ووجدت جنيفر أنها تكاد تموت جوعاً، وكان كل شيء قُدم خلال الوجبة رائع النوعية.

كما أشار كليف، كان هناك نار صغيرة تشتعل في موقد حجري قديم.. واعتذر المضيف لأن لا فراش لديه يقدمه لهما.. حمد كليف الله على هذا وتنهدت جنيفر لنفسها.. هناك فقط مقعد خشبي طويل وكرسي هزاز، لكن المرأة العجوز جاءت لهما بكمية من البطانيات للف جسميهما فيها. ثم اعتذر الزوجان ماك بارك، فهما مضطران للاستيقاظ باكراً ويحتاجان إلى الراحة..

حاولا النوم بعد ذهاب العجوزين.. جنيفر على الأريكة الخشبية وكليف على الكرسي الهزاز.. لكن لم يستطع أي منهما سوى الإغفاء قليلاً.. وكان صياح الديك في الخارج حدثاً، فهو يعلن أن الليل يكاد ينتهي.

همس كليف ناعساً:

- يبدو أننا سنتناول البيض للفطور.

قالت جنيفر:

- الدجاجة تبيض، وليس الديك.

- آه.. لكن إذا كان هناك ديك، فبالتأكيد يوجد دجاج أيضاً.

ظهر العجوزان عند أول ضوء، ونهض الضيفان بخفة ونشاط.. وجدا لراحتهما أن الضباب بدأ ينقشع بفعل الرياح. كان هناك شق صخري في الفناء تجري من خلاله مياه ساقية، وتصب المياه في أنابيب لتخدم كل



الحاجات بما فيها الاغتسال.. غسلت جنيفر وجهها بالماء الكريستالي وكانت منعشة لكن باردة جداً.

أرسل شروق الشمس أشعة ذهبية عبر الغيوم المتحركة، وأصبح الوادي الذي تقع فيه المزرعة على مرأى للعيون. وكما هو الأمر في وادي كونال، كانت المياه تجري على طول الوادي، لكن التلال المحيطة بالمكان هنا، كانت أكثر انحداراً..

أثناء تناولهم الفطور قال كليف إنه سيسير إلى الكاراج للحصول على بعض الوقود.. آملاً أن يتمكن من الحصول على توصيلة إلى هناك.. تناولا عصيدة حليب طازج من البقرة، والبيض الذي أمل به كليف.

كان الزوجان يمتلكان جواداً أبيض عجوزاً، وعربة نقل قديمة يستخدمانها في المزرعة.. لكنهما يعتمدان في تنقلهما على الباص الأسبوعي، الذي لا يعمل يوم الاثنين.. لذا يجب على كليف أن يسير.. بدا شاحباً متعباً، وثيابه مجعدة من النوم فيها، ومختلفاً تماماً عن المظهر الخالي من العيوب الذي يظهر به عادة.. وغادر المكان بمزاج متذمر.

وعدها كليف بالاتصال بغلين ماك كونال إذا وجد هاتفاً في الكاراج ليطمئن من فيه على سلامتهما.. وأملت أن يلتقي بمن يعيده إلى هنا.. فهم مضطرون إلى العودة إلى «روز كوناج» بعد ظهر اليوم. وتساءلت أي تقدم حققته كلير مع تشايس.. وتوقعت أن تُستقبل بخبر الخطوبة، وسرّها أنها ستعود إلى منزلها فوراً فلن تضطر إلى تحمل رؤية بهجتهما ببعضهما.

مرّ الوقت ولم يعد كليف بعد. خرج العجوز كي ينكش أرضه.. وقامت جنيفر بما تستطيع لمساعدة السيدة ماك بارك بأعمال المنزل.. كانت المرأة الطيبة مهووسة بالحديث عن الإنجاب، ولاكتشافها أن جنيفر ليس لديها أولاد، راحت تسألها عن مدة زواجها وكم ولداً تريد، وما إذا كانت تعاني من مشاكل معينة، ووجدت جنيفر الموضوع محرجاً.. واحمرّ وجهها، وراحت تراقب الطريق بحثاً عن أي أثر يدل على عودة كليف.. لو أن شجاعتها كانت معها، لتماشت مع حديث المرأة، ولقالت

إنهما لا زالا في شهر العسل، وهذا قريب جداً من الحقيقة.. فهي تحب أن تقوم بمثل هذه الرحلة في شهر عسل، وطبعاً دون هذه النتيجة السيئة الحظ.. لكن، حتى هذه الورطة، ما كانت لتؤثر في شيء لو كانت مع.. شخص.. تحبه.. ودخلت في حلم اليقظة.. تتصور مأزقاً مماثلاً مع تشايس.. كان لا شك يعرف كل البلاد وشاركها معها ليس في جمالها فقط، بل بتاريخها.. كان سيعيد إلى الحياة المعارك والمغامرات التي شهدتها هذه التلال.

لم تكن تراقب الطريق مع وصول السيارة أخيراً.. كانت السيدة ماك بارك قد طلبت منها تقشير البطاطس لوجبة الظهر، وسمعت السيارة تدخل الفناء وتتوقف.. مسحت يديها بسرعة وركضت إلى الخارج لتستقبل كليف.

ثم توقفت فجأة تنظر بذهول.. فالسيارة لم تكن سيارة رياضية صفراء صغيرة.. بل كانت الفوكسهول المألوفة لها.. والرجل المتقدم نحوها كان تشايس ماك كونال.

***



## ٩ ـ تضحية أخت

تسمرت جنيفر في مكانها للحظة، ثم دفعها فرحها وارتياحها إلى الأمام.. وركضت لترمي نفسها بين ذراعيه اللتين فتحهما ليستقبلها.. وشدها إليه بقوة قائلاً:

ـ جنيتي.. جنيتي الغالية.. شكراً لله أنك سالمة.

كانت مشدوهة لهذا التعبير الذي يدل على اهتمامه وسعيدة لكونها بين ذراعيه، تعلقت به باكية إلى أن سأل بلهفة:

ـ هل أنت بخير؟ هل أصبت بأذى؟

تمتمت:

ـ أنا بخير تماماً.. وسعيدة جداً لأنك جئت.

ـ هذا أمر مشجع.

رفعت عينيها المتسائلتين إلى عينيه لترى في عمقهما الرمادي بريقاً لم تره من قبل.. ودعكت خدها في صوف كنزته تتمتع بلحظات النشوة.. لكن قرقرة الدجاج ذكرتها بأشياء أكثر أهمية.. وسألت:

ـ كيف عرفت أنني هنا؟

ـ اتصل كليف.. وقلت له إنني قادم لآخذك.. لم أشعر بارتياح في حياتي أكبر مما كانت راحتي لسماع صوته وقوله إنك سالمة.. لقد انتظرت الليل بطوله، جنيتي لا أعرف أين أبحث عنك، اتصلت بالشرطة والمستشفيات، لكنني لم أحصل على أي خبر. وكان جحيماً لا يطاق.

أحست جنيفر بالإثارة لسماع رنة صوته المتأثرة.. إذن تشايس لم

www.liilas.com

يكن غير مكترث بها! وفجأة ارتخت قبضته حولها ورأته ينظر إلى شيء ما من فوق رأسها.. وسأل:

- من هي هذه الساحرة العجوز التي تحدق بنا؟ تبدو على وشك أن تستحضر لعنات السماء على رأسينا.

شهقت جنيفر:

- أوه! إنها السيدة ماك بارك.. تشايس، أرجوك دعني.. إنها.. كليف.. قال لها إنني زوجته.

تركها صائحاً: ماذا فعل؟

- لم أرغب في هذا.. لكنه اعتقد أن هذا سيبدو محترماً أكثر.. كنا مضطرين لقضاء الليل هنا.

نظر إليها بابتسامة ملتوية:

- وفعلتما؟ أليس كذلك؟ وفي ذات الغرفة؟

- أجل.. لا.. أعني أننا نمنا في المطبخ وبشكل غير مريح أبداً..

وصلت السيدة ماك بارك إليهما عيناها الصغيرتان متهمتان.. وصاحت بصوت مصدوم:

- سيدة هارغريفز!

رمى تشايس رأسه إلى الوراء ضاحكاً.. ثم مد يده إلى السيدة العجوز.

- سيدتي.. أنا أدين لك لاعتنائك الشديد بشقيقتي الصغيرة.. زوجها، كما أخشى، رجل غير مسؤول.. خرجا بالأمس خلافاً لنصيحتي.. على فكرة دعيني أقدم نفسي: أنا تشايس ماك كونال.

تهلل وجه السيدة العجوز بابتسامة.. ولامست يده، ثم أحنت ركبتيها المتصلبتين باحترام وقالت:

- لورد غلين كونال الجديد.. أيها الفتى، لقد شهدت زعامة عمك.

بعد هذا لم يعد هناك استنكار في عينيها.. وقُبلت جنيفر على أنها أخته، مع أن العجوز كانت تتفحصها بطريقة متسائلة.. وهم يتناولون



الشاي، أصرت العجوز على التذمر لدى تشايس.. مشكلتها كما شرحت، أنها لم تجد شبهاً بين الأخ وأخته، ولا تحمل جنيفر أي مواصفات قريبة من أسرة ماك كونال.. فأسرة ماك بارك تعرف أسرته كلها، وعشيرة ماك كونال.. وهي تنتج رجالاً طوال سمر الوجوه وآنسات قويات متوسطات القامة.. وتفرست بجنيفر تزم شفتيها.. أما هذه فلا شك أنها إنتاج ضعيف.. وهذا وصف أبهج تشايس:

- إنها نسل متأخر، تعود إلى جدتي الكبرى، وربما سمعت بها.. كانت فرنسية.. سيدة عظيمة جداً، لكنها صغيرة الجسم، وبنية الشعر.

تساءلت جنيفر ما إذا كان صادقاً في هذا، لكنها كانت ممتنة له لإنقاذه الموقف.. وكان لا بد من استحضار السيد ماك بارك ليتعرف إلى سيد غلين كونال الجديد. وسادت لحظة ارتباك حين قال العجوز دون تنازل:

- ما عرفت أن لك شقيقة يا فتى.

- على الأرجح لم تسمع بها لأنها تربت في انكلترا.. فالشمال كان بارداً جداً عليها.. فكما ترى، هي ضعيفة قليلاً.

تمتمت السيدة ماك بارك:

- أجل.. مولودة قزمة.

وتراقصت عينا تشايس مرحاً.

استطاعا أخيراً أن ينتزعا نفسيهما انتزاعاً من تمسك العجوزين بهما.. ومع أنها كانت مرتاحة جداً لدعمه قصتها، إلا أنها انزعجت لفرحه وابتهاجه على حسابها..

همست وهما يدخلان في السيارة:

- ألا يجب أن أعطيهما شيئاً؟

أجاب وهو يدير المحرك:

- لا تتجرأي أبداً على هذا.. سيشعران بالإهانة.. الهايلاندرز مضيافون ومتكبرون.

توجهت السيارة نزولاً في الطريق الترابي ثم استدارت إلى الطريق..

كانت الفسحة التي وضع فيها كليف سيارته فارغة.. فسألت:

- ما الذي حدث لكليف؟

- قال إنه سيأخذ سيارته ويفتش عن حلاّق ثم يتناول وجبة طعام جيدة.. وقلت له أن يترك أمرك لي.

كان في صوته لذعة وعيد تتناقض مع مقابلته الرقيقة لها.. ونظرت جنيفر بقلق إلى جانب وجهه، ورأت أن شفتيه مشدودتان.. إذن لن تنجو بفعلتها دون توبيخ.. حاولت نزع خاتم كليف خلسة من إصبعها، لكنها لم تستطع.

قال بصوت باتر:

- هل كان هذا ضرورياً حقاً؟

أدركت أنه لا بد لاحظ حركتها، فقالت بخضوع:

- ماذا؟ لقد طلب كليف هذا.

- اخلعيه.

- إنه لا يخرج.. ربما أستطيع خلعه بالصابون.

لم يقل شيئاً.. بل قاد بسرعة وبصمت، وتلاشى الابتهاج الذي أثارته كلماته الأولى.. في خضم فرحها لرؤيته، نسيت جنيفر كل ما جرى من قبل.. صحيح أنه انتظر طوال الليل أخباراً عنها، لكن بدون شك كانت كلير معه تسلي سهره.. وسألت بخوف:

- هل قلقت كلير؟

- ليس تماماً.. فقد قلت لها إنك ستكونين بخير مع كليف فلو كان هناك حادث لأُبلغنا بالأمر.. ويبدو أن هذا أرضاها، فذهبت لتنام.

تساءلت عما إذا كانا تشاجرا، وهذا هو سبب نظراته الكالحة.. وبدا غريباً لها أن تذهب كلير إلى النوم في وقت لديها عذر وجيه للبقاء طوال الليل إلى جانبه. لكن لطالما كانت كلير تهتم جداً براحتها.. وربما يكون سبب انزعاجه عدم عرضها عليه البقاء معه.

وصلا إلى منطقة آهلة أكثر والتقيا بالعديد من السيارات



والشاحنات.. إنه صباح الاثنين، وكان يجب أن تكون الشقيقتان في طريق عودتهما، لكن كليف الذي عليه أن يأخذهما لا تعرف سوى السماء مكانه.. وفي هذا الوقت ستبقيان عالقتين في «غلين كونال». وستضطران إلى إجراء اتصالات هاتفية وتقديم تفسيرات، إلا إذا تطوع تشايس بإيصالهما إلى «روز كوتاج».

فجأة استدار تشايس إلى طريق جانبية تمتد بين أشجار غابة صنوبر.. وتقدم إلى الأمام قليلاً، إلى أن وصل إلى طريق مفتوح يصل إلى داخل الغابة.. أوقف المحرك حين أصبحا بعيدين عن الطّريق الرئيسية التي تركاها.. وساد صمت ثقيل يكاد يكون محسوساً.. كانت الأشجار تقف على الطرفين في صفوف تحميهما من الريح..

استدار تشايس في مقعده ونظر إليها:

- والآن، آنسة غرايون.. هل تكونين لطيفة إلى درجة أن تخبريني بما حصل وكيف تورطت في هذه اللعبة؟

قفزت دجاجة أرض أمامهما تكسر صمت الغابة بصوتها الحاد، وكُسر صمت جنيفر كذلك فتصاعد غليان سخطها، وصاحت:

- كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة؟ لدي مطلق الحق في أن أخرج مع كليف إذا كنت راغبة.. وكان حظاً سيئاً فقط أن.. توقفت السيارة.

- هذه واحدة من المناورات الأكثر ابتذالاً لإيصال فتاة إلى موقف تضطر فيه إلى التنازل.

صاحت:

- والتنازل كلمة مبتذلة.. على أي حال، لم يكن لدى كليف أي رغبة في أن يجعلني أتنازل كما تصف الأمر.

- إذن لمَ الخاتم؟

- لقد شرحت لك السبب.

- لكنه غير مقنع.

لم ترد وقاومت اندفاعاً متسرعاً للدموع.. إن تشايس يرميها بحكم جائر في وقت ظنت أنه جاء إليها لأنه مهتم فعلاً بها..

تابع وعيناه على وجهها المنخفض:

ـ لقد استدعيت بالأمس لأمر طارىء.. لكنني عدت في أسرع وقت ممكن.

قاطعته:

ـ وهل كانت النعجة بخير؟

ـ بكل خير حين انتشلناها.. أكرر، عدت في أسرع وقت ممكن آملاً أن ترغبي في رؤية الأملاك. لكنني وجدت أنك خرجت مع كليف دون القول إلى أين ولقضاء اليوم بطوله.. فهل تعتقدين أن في تصرفك هذا شيئاً من الاحترام لمضيفك؟

ـ لم أعتقد أنك ستمانع.

تحرك بنفاذ صبر:

ـ لم أكن أعرف أنك مجنونة إلى هذا الحد، والواقع أنني اعتقدت أن تطلعاتك تسير في اتجاه مختلف.. لكن من الواضح أنني كنت مخطئاً.. وبعد أن تنازلت له بالكامل أعتقد أنه مستعد لإصلاح غلطته؟

طغى اللون الأحمر الساخن على وجه وعنق جنيفر وصاحت بعنف:

ـ أنا لن أقبل به بأي ثمن.

ـ أنت فعلاً تدهشينني.. هل هذه إذن واحدة أخرى من نزواتك المتسامحة؟ تعرفين رأيي جيداً بهذه الأمور.

شحبت بشدة أمام تعبيره المتجهم وتمتمت:

ـ لكنك عرفت أن ما قلته لم يكن سوى كلام فارغ.. فأنا لست.. امرأة.. ضائعة.

لان وجه تشايس لكلامها.. فقال:

ـ لكنك لن تكوني ضائعة لو تزوجت من كليف.

احمرّت مجدداً وردت بغضب:



ـ أجرؤ على القول أن هذا سيناسبك تماماً.. هل تسمح أن تفهم هذا جيداً سيد ماك كونال.. لقد خرجت مع كليف لأنه اتضح لنا تماماً أنك مفتون بكلير، وكان هذا أمراً مؤلماً لنا معاً.. وبالطبع أردنا الابتعاد عن الطريق فقد شعرنا أننا متطفلان.

ولم تدرك أنها تفضح نفسها بلهفتها كي تشرح له الدوافع.

صاح:

ـ لكن يا إلهي يا فتاة؟ أنا لست مفتوناً بكلير! أنا معجب بها، وأي رجل لا يمكن إلا أن يعجب بها؟ لكنني لست أبداً واقعاً في حبها.

ـ إذن لمَ كنت تتصرف وكأنك تحبها؟

ارتسمت ابتسامة خبث على وجهه وهو يرد:

ـ كي أدفعك إلى الغيرة.

نظرت إليه مشدوهة تلاحظ لمعان عينيه:

ـ ماذا؟ لكن كان هذا أمراً خبيثاً ولا لزوم له.

ـ أبداً.. فالغيرة أفضل موضح للعواطف.. وظننت أنها قد تساعدك على اكتشاف ما في قلبك.. أردتك أن تحبيني بقدر ما أحبك.

هزت رأسها بعنف غير مصدقة.. لا يمكنها أبداً تقبل واقع أن تشايس يفضلها على أختها.. لا شك أن كلير رفضته، وهذا مجرد انتقام.

تنهدت:

ـ أتمنى لو أصدقك.

ـ ربما سيساعدك هذا.

فك حزام مقعدها وجذبها إلى ذراعيه، وكان عناقه متطلباً لكنها لم تستجب له.. أخيراً دفعها بعيداً عنه متنهداً بسخط.

ـ ما الخطب الآن؟

تمتمت:

ـ أنت خبير جداً.. وهناك أخريات أحبيتهن وتركتهن أليس كذلك؟

ـ وما الذي يجعلك تظنين هذا؟

- في طريقنا من «ميلروز» قلت لي إنك مرتبط.

- لقد عنيت أنني مرتبط بك أيتها الحمقاء! وأنت رفضت طلبي ليدك في سبيل أن تقودي السيارة.. مع أنني كنت وقتها على ثقة تماماً من أنني التقيت بنصيبي.

قالت بضحكة طفولية:

- لكنك لم تطلب يدي في الواقع.

- هلا مسحت هذه الضحكة عن وجهك.. أنا جاد جنيفر.

- وأنا كذلك.. الأمر لا ينفع تشايس.. إذا لم تكن مفتوناً بكلير.. فهي مفتونة بك.

- وهل ألام على هذا؟

- بكل تأكيد.. كانت مستعدة للزواج من كليف هارغريفز إلى أن جئت أنت.. لقد قادتها طريقة تصرفك إلى الاعتقاد أنك.. أنك مهتم بها.. ولن أستطيع السماح لك بتحطيم قلبها، تشايس.

- هذا على افتراض أن لديها قلباً قد يتحطم.

أثار هذا الكلام كل ولاء لجنيفر نحو أختها. مع أنها تساءلت وأكثر من مرة ما إذا كانت كلير قادرة على أن تحب بعمق ودون أنانية، إلا أنها رفضت القبول بشك مماثل من شخص آخر.. والأكثر من رجل بذل جهده ليثير الشك فيها.

قالت بلهجة تأنيب:

- ما تقوله عنها شيء مريع.. ولن تتخلص من التزامك بالتظاهر أن كلير لن تتألم.

- لن يكون هذا سوى ضربة لغرورها الفارغ.

- إذن هذا كل ما تعرفه عنها؟ تظنها منتفخة فارغة. لكن كلير أرق وألطف فتاة تنفست على وجه الأرض.

- حقاً؟ وهل كانت لطيفة ورقيقة معك مؤخراً؟ أعتقد أنني لاحظت حدة لاذعة في تصرفها معك.



أجفلت جنيفر بألم، فهذا صحيح تماماً. لكنها قالت مدافعة:

- أتوقع أن أكون قد أثرت نوترها لسبب ما.. فهي مثلك تعتبرني طفلة طائشة.

تراجع في مقعده ينظر إليها بحيرة:

- اللطفاء عادة لطفاء مع الأطفال.. دعك من هذا جنيفر.. كيف يمكن لي أن أتزوج من أختك وأنا أحبك. وأسكنها في غلين كونال الذي تكرهه؟ أي فرصة ممكنة للسعادة ستكون لنا؟

- ألا تستطيع العيش في إدنبره؟

- لا.. لا أستطيع تحمل إدارة مكانين، ويحتاج غلين كونال إلي.

ظهر خوف مفاجيء في عينيه:

- وهل تجدين هذا مستحيلاً كذلك؟

ردت دون تفكير:

- أنا؟ أنا أحب المكان.

- إذن..

- ليست المشكلة هنا.. فأنا لا أصدق أنك لا تحب كلير.. ربما تشاجرتما؟ إنها جميلة جداً، ويقع في حبها كل رجل تلتقيه.

قال بجفاء:

- لقد قلت لك لماذا لا تروق لي.. ولا شك أنني أزعجتك بهذا نظراً لولائك لها.

أمسك وجهها بيديه:

- أوه.. جنيتي.. جنيتي.. لم العناد وتعمد وضع الحواجز بيننا؟ يجعلني جمال كلير بارداً.. لكنني أحب وجهك الصغير المرح، وطريقة ارتفاع عينيك عند الأطراف، وتلك الابتسامة.. أنت مزيج من الجرأة والخجل.. متشوقة لتقبل تحديات الحياة ومذعورة حين أحاول قبول تحديك.. لقد أحسست تلك الليلة أنني يجب أن أحميك من طيشك.. لكنني أدركت منذ ذلك الوقت أنك على حق.. فأنت لن تمنحيني نفسك

إلا إذا كان قلبك مشاركاً.. وأنا أريد قلبك، حبيبتي.. لقد تراجعت لأنني لم أرغب في إخافتك، لكنني ملعون لو استطعت التراجع أكثر من هذا.

اشتعلت نار متأججة في عينيه الناظرتين إليها، فارتجفت شفتا جنيفر وازدادت قناعتها في أنه يعني ما يقول.. وتمتمت: أوه.. تشايس.

أحنى رأسه يعانقها، وقال بحدة:

ـ والآن.. لا أريد سماع المزيد من الهراء، آنستي.. حالما أعيدك إلى «روز كوتاج».. سأقول لأمك إننا مخطوبان.

التفتت إلى يدها اليسرى:

ـ يجب أن أخلع خاتم كليف أولاً.. أم أدعي أنه منك؟

ـ لن تفعلي أبداً.. إن لم يخرج من إصبعك قبل أن تعودي فسأقطعه بنفسي.

وعادت أفكار جنيفر إلى أختها. إذا أعلن تشايس خطوبتهما فسيذلها هذا بعمق لأنها كانت تتوقع أن تكون هي المنتصرة.. ولن تسمح جنيفر أن تتسبب بمثل هذا الألم لها.

قالت بحزن:

ـ أخشى ألا تستطيع قول شيء بعد.. فهذا سيؤلم كلير كثيراً. ربما بعد انتهاء عطلتنا وعودتنا إلى انكلترا ستدرك ألا فائدة وتجد شخصاً آخر.

تلاشى صوتها بسبب الغضب الذي بدا على وجه تشايس.. وأمسكها بكتفيها يهزها بخشونة:

ـ هل مشاعر أختك أهم عندك من مشاعري؟

ـ أنا أطلب منك فقط الانتظار.

ـ وإلى وقت غير محدد؟

ـ لن يطول الأمر قبل أن تجد كلير شخصاً يعزيها.

ـ إذن تعلقها بي لا يمكن أن يكون عميقاً.. أيمكنك أن تجدي العزاء بسرعة؟

صمتت، لا تريد مقارنة مشاعرها بمشاعر كلير.. وهزها مجدداً:



ـ هل هذا ممكن؟

هزت رأسها نافية وبصمت.. فقال لها:

ـ أنت غير منطقية.

ـ لكنني سأنتظرك إلى الأبد.. ألا يمكن أن تنتظر بضعة شهور؟

ـ أنتظر إذا كان الأمر ضرورياً.. لكنني لا أظنه هكذا.. صدقيني.. من الأفضل أن نقول الحقيقة لأختك على الفور.

ـ لا أظن هذا.. فأنا أعرفها أكثر منك.

بدأ تشايس يفقد أعصابه:

ـ لن أضحي لأجل إرضاء غرورها.. قرري الآن جنيتي.. إما أن تعودي كخطيبتي أو لن تريني مجدداً.

انكمشت منه بخوف.. وشهقت: لا تشايس..

ـ حسناً؟

نظرت إلى العمق الأسود أمامها بين الأشجار.. وتذكرت بكاء كلير الذي سببته مراوغة تشايس لها.. ولقد قررت يومها أن تفعل كل ما في وسعها لمنحها السعادة التي تستحقها. بإمكان تشايس قول ما يريد.. لكنه مسؤول عن إثارة الآمال لدى كلير، ومن الظلم أن يتنكر لها فجأة لصالح امرأة أخرى.. على أي حال هي لم تطلب منه سوى الانتظار.. لكنه متكبر متعجرف لا يحب المعارضة.

قالت بحزم:

ـ إذا كنت غير مستعد للانتظار.. إذن فالأمر منتهٍ.

أرادت أن تضيف أنها لا تظن أنه يحبها حقاً.. ولأنها لم تكن تنظر إليه، لم تلحظ نظرة عدم التصديق في عينيه.. لقد قامر.. وخسر.

قال باختصار:

ـ حسن جداً.. فليكن.

وأدار المحرك ليتراجع بالسيارة.

على الطريق، راح تشايس يحادثها وكأنه مرشد سياحي.. أبقى عينيه

على الطريق.. وكانت لهجته باردة ودون أي انفعالات شخصية، وجهه لا يكشف شيئاً، قناع بنّي متجهم يخفي كل المشاعر.

حاولت أكثر من مرة إعادة فتح الموضوع، لكنه كان يقاطعها في كل مرة ليشير إلى شيء ما، ويتابع شرحه المنفرد لها. أخيراً استسلمت وجلست صامتة.

لكن استسلامها لم يرق له، فكان يتبع معلوماته بأسئلة مثل: «ألا نظنين هذا؟» أو «أليست هذه تلة غريبة الشكل؟» وكانت تجيب بكلمات آحادية، وتكبح بصعوبة تزايد الرغبة في أن تصفعه.. وبقسوة.. لقد أثار سخطها، وعلمت أن الأمر سيكون مأساوياً إن لم يلن ويغير موقفه قبل أن تغادر عائدة إلى منزلها.

إذا لم يتراجع فما عليها سوى الافتراض أنه لا يحبها حقاً.. إذا كانت قد جرحت غروره بقوة فلا شك أن هذا ما يؤلمه.. لقد توقع منها القبول به تحت أي شرط، لكنها رفضت وأنبته لأجل شقيقتها.

سوف تغضب كلير كثيراً إذا اكتشفت الواقع الحقيقي للأمور.. فأن تكون أختها البسيطة الجمال النكرة قد أفسدت لها خططها، هو أمر سيجرح حبها لنفسها وبعمق..

نظرت إلى وجه تشايس الجاد.. تساءل كيف يمكن لها اختراق الجدار الذي بناه بينهما.. كانت تعلم أنه لن يرضى سوى بالإذعان الكامل.. وأشعلت كبرياؤها نار الاستياء فيها لقراره النهائي.. قد يكون لورد أوف غلين كونال.. لكن هذا لا يعطيه الحق في أن يعاملها دون تقدير لمشاعرها.. أو الأصح أن يعامل مشاعر كلير وكأن لا أهمية لها..

كان عليه أن يدرك أن اهتمامها بخيبة أمل أختها لم يكن تفكيراً نهائياً، وأن يتعاون مع رغبتها في تهوين وقع تلك الخيبة بدلاً من إبعادها عنه لأنها طلبت منه أن ينتظر..

وهكذا لم تحاول الاسترخاء، واحتفظ تشايس بعدم اكتراثه المتباعد إلى أن وصلا إلى غلين كونال.. ورأت سيارة كليف متوقفة أمام الباب



الأمامي.

قال تشايس ببرود:

- إذن لقد استطاع الوصول.. وستتمكنون من العودة بعد الغداء.. ويجب أن تعذريني إذا لم أضغط عليكم للبقاء، لأنني أشعر أن الجو سيكون متوتراً نظراً لما أصبحت الأمور عليه.

ردت جنيفر ببرود مماثل:

- لن نستطيع البقاء حتى ولو أصريت.. عودتنا متوقعة اليوم.

سعت عيناها إلى عينيه دون قصد وهي تخرج من السيارة، ورأت التأنيب فيهما، فتقدمت منه: تشايس..

خرجت كلير راكضة نحوهما:

- أوه.. ها أنت أخيراً!

ولفت ذراعيها حول أختها.

- أوه.. جيني.. حبيبتي.. لقد قلقت جداً عليك.. ظننت أنك تعرضت لحادثة، لكن تشايس كان رائعاً مطمئناً ولطيفاً جداً.

أبعدت جنيفر نفسها من حضن أختها، ورأت أن نظرها مثبت على تشايس، بينما شفتاها منفرجتان عن ابتسامة فاترة لم يرد عليها.. بل وقف قاتماً صارماً يداه في جيبيه وعيناه على الغدير البعيد.

صدم غضب مفاجيء جنيفر.. إن كلير متلهفة له حقاً، لقد أساءت فهم دوافعه حين واساها.. وها هي الآن تبدو مجروحة لعدم تجاوبه معها.. تشايس قاس غير لطيف بتعاليه هذا، أو ربما كان لطيفاً أكثر من اللازم.

دست كلير ذراعها في ذراع أختها:

- تعالي حبيبتي.. تبدين سيئة الحال.. قالت أليسا إن الغداء سيكون جاهزاً حالما تصلان.. وكما ترين، عاد كليف فاسرعي إلى ترتيب نفسك.. وسأطلب منها أن تبدأ بتقديم الطعام.

كانت تتكلم وكأنها سيدة المنزل.

وأبعد تشايس نظره عن الغدير، لينظر إلى جنيفر نظرة انتقاد.. وقال لكلير:

ـ قولي لها أن تأخذ وقتها.. فأختك كما أتصور تحتاج إلى حمام.. ولديها أشياء أخرى تفعلها.

كانت جنيفر قد أخفت يدها اليسرى في جيب بنطلونها، غير راغبة في عرض الخاتم على كلير. واتجهت عينا تشايس إلى يدها بابتسامة ساخرة شيطانية. إنه لا شك يعني أنها بحاجة إلى الوقت لتخلصه من إصبعها.

دخلت الأختان إلى المنزل ذراعاً بذراع.. وفيما ألقت كلير نظرة إلى الخلف لتبتسم لتشايس، نظرت جنيفر إلى الأمام.

أنعشها الحمام وتغيير الثياب. وتمكنت من خلع خاتم كليف باستخدام الصابون..

ارتدت بنطلوناً وقميصاً أبيض، وشعرت بأنها استعادت حيويتها.. وجدت الآخرين مجتمعين في الردهة بانتظارها.. ونظر الرجلان إليها بإعجاب.. بينما قالت كلير:

ـ هكذا أفضل بكثير.. تبدين الآن كما أنت تماماً.

كما هي تماماً، التافهة العادية التي سماها تشايس يوماً الجنية!

لم تستطع أن تأكل كثيراً وآلمها رأسها.. لكن حديث أختها المبتهج عوّض عن صمتها.. وطلبت كلير من كليف سرداً مفصلاً عن مغامرتهما، فقصّها عليها مع زخرفة مرحة، لكنه لم يذكر أن جنيفر مثلت دور زوجته.. وكان تعبير وجه تشايس الساخر يدل على أنه لاحظ هذا التجاوز.

انتهت الوجبة وقال كليف إن من الأفضل أن ينطلقوا في الحال فأمامهم مسافة طويلة. أصرّ على الصعود للمجيء بحقيبتهما هادفاً أن يلتقي جنيفر فقد شاهدها تصعد إلى غرفتها.. والتقيا في الممر فسارع إلى سؤالها:

ـ هل خاتمي معك؟

أعطته له:



ـ شكراً لإعارتي إياه.

ضحك ودسه في إصبعه:

ـ دليل الاتهام.. لقد خرجنا من المأزق بسلامة وأعتقد أن تشايس لم يفش سرّنا؟

قالت بابتهاج زائف:

ـ لقد تصرف بشكل رائع.

ـ هذا جيد.. خشيت أن يكون منزعجاً.. من المؤسف أننا اضطررنا كلانا إلى الانفراد مع المرأة الغلط.

ـ لكن كلير لن تتفق معك.

تركته راكضة إلى الأسفل.

استأذنوا مضيفهم بالرحيل وقال تشايس إنه يأمل أن يكونوا قد استمتعوا بزيارتهم بالرغم مما حدث ليلة الأحد، ونظر عن قصد إلى جنيفر ولم يقترح لقاء آخر، ولم تفعل كلير كذلك أمام دهشة جنيفر.

فُسّر سبب هذا مع وصولهم إلى «كارس ستيرلنغ» حين قالت كلير فجأة:

ـ أنا مسرورة لابتعادي عن تلك الجبال.. قد يعجب بها بعض الناس لكنها تقبض نفسي.. تشايس رجل فاتن وبالطبع مغرم بي.. لكنني لن أستطيع العيش في ذلك المكان القذر المهجور.. ولقد قال لي إنه لا يستطيع تحمل مصاريف السكن في مكان آخر.

إذن كانت تضحية جنيفر للاشيء.. لقد قررت كلير أنها لن تستطيع الزواج من تشايس حين تقدم لطلب يدها.. وبما أنه يعرف هذا كان عليه أن يخبرها به.. لكنه لم يفعل بل أغضبه دفاعها عن أختها.. لقد أبدى شكه في عمق ارتباط كلير وكان على صواب.. فهي كانت على استعداد للتخلي عنه دون أن يتحطم قلبها، الواقع أنها بدأت تسلي نفسها مع كليف.. وبسبب كبرياء تشايس وحماقة جنيفر انفتحت هوة بينهما، لا ترى سبيلاً إلى وصلها.. وكان قلبها محترقاً متأزماً حين أوصلهما كليف

أخيراً إلى «روزكوتاج».

مرّ ما تبقى من أيام العطلة ببطء، بينما عانت جنيفر مزاجات متقلبة ما بين الأمل واليأس. كانت كلير تخرج دائماً مع كليف وكانت جنيفر توصل أمها إلى حيث ترغب.. ولم يصلها من تشايس أي خبر أو إشارة.. وأخذ أمل جنيفر الضعيف يموت بالتدريج.

كن قد قررن العودة بالقطار.. وسرت جنيفر لهذا.. فالرحلة بالسيارة إلى الحدود كان لها ذكريات مؤلمة لا ترغب في استعادتها.

ارتاحت ليديا والسيدة غرايون بشكل ظاهر مع تبخر تعلق كلير بتشايس، وتوقعتا في سرهما أن تصل وكليف إلى تفاهم ما قبل السفر. وكانتا تخططان للمستقبل سلفاً.. لقد عرضت ليديا على ليزا أن تقيم معها بعد زواج كلير.. واقترحت أن على جنيفر أن تجد لنفسها وظيفة في إدنبره كي تكونا قريبتين من بعضهما.. وهو مشروع لم تتلقاه جنيفر برضى. إذا كان عليها أن تنسى تشايس فسيكون هذا أسهل وهي في انكلترا.

في آخر يوم لهن، ذهبت جنيفر لوحدها إلى إدنبره لشراء تذاكر السفر وبضعة أشياء أخرى. والتقت في موقف السيارات بالفوكسهول.. اجتاحتها موجة ذكريات وهي تتعرف إلى مظهرها المألوف. اقتربت منها ووقفت مستندة إليها تنظر إلى الداخل. كانت سترة تشايس مرمية على المقعد المحاذي للسائق.. وأحست بأنها غير راغبة في إبعاد نفسها عن دلائل وجوده.. وتسلل إلى نفسها الإحساس بالهجران.. ستكون في الغد على بعد عدة مئات من الأميال عنه.. وتصاعدت الدموع ببطء إلى عينيها لتتساقط فوق دهان السيارة.

ـ أعرف أن سيارتي تحتاج إلى الغسيل.. لكن جهودك غير كافية.

أجفلت بعنف لسماع الصوت المألوف.. وراحت تفتش بسرعة عن منديلها لتمسح وجهها.. وتمتمت:

ـ لقد دخل شيء في عيني.

تقدم من خلفها ووضع يديه على كتفيها يديرها لتواجهه.



ـ ماذا تفعلين هنا؟

ضحكت بارتجاف:

ـ أتسوق.. ولاحظت وجود سيارتك.. وبما أننا مسافران في الغد.. وقفت أودعها.. لقد أمضينا أوقاتاً طيبة فيها.. تشايس.

سأل بصوت منخفض ناعم:

ـ هل تبكين على فراق السيارة فقط.. جنيني؟

ـ لم أكن أبكي.

أسقط يديه عن كتفيها:

ـ لا تخدعي نفسك.

وأبعد نظره عنها يتطلع إلى موقف السيارات.. فاختلست نظرة إليه.. كان يرتدي ثيابه المألوفة ويبدو مختلفاً جداً عن لورد غلين كونال.

قال يكمل حديثه:

ـ سمعت من ليديا أن تلك الشقيقة المتطلبة التي لك، قررت أن تصبح السيدة هارغريفز.. أرأيت أنك كنت مخطئة تماماً حين اتهمتني بتحطيم قلبها؟

ـ لقد فهمت أن الصعوبة كانت في رفضها السكن في غلين كونال.

عاد بنظرته إليها:

ـ كان هذا عذرها لإنقاذ ماء الوجه.. لكن حين اختفت مع كليف أظنها واجهت الحقيقة.. لم تكن بكل تأكيد متناسبين مع أنها لم تكن مستعدة للاعتراف بهذا لك.

انتظرت جنيفر بأنفاس مكبوتة، لكنه لم يتابع كلامه بمحاولة الصلح التي كانت تأملها بل قال بعفوية:

ـ إذن ستسافرين غداً؟

ـ أجل.. لقد قلت لك هذا.

ـ في الواقع كنت أعرف قبل الآن.. لقد ذهبت لزيارة ليديا ليلة أمس وعرفت بأمر كلير وكليف.. كم كان سعيداً لتمكنك من نزع خاتمه.

ـ كان يمكن لي أن أشرح الأمر.

ـ أشك في هذا.. على أي حال.. الجيد هو ما تكون نهايته جيدة.. أتمنى لك رحلة سعيدة.

تمتمت آلياً:

ـ شكراً لك.. لو لم ألتقي بك هنا صدفة، لما أزعجت نفسك بالوداع؟

ـ لم تكن صدفة.. كنت أكيداً أنك قادمة إلى إدنبره وكنت واثقاً أنني سألقاك هنا.. أما بالنسبة للوداع، أعتقد أن لبديا تخطط لنقل عائلة غرايون إلى اسكتلندة.. فهل سيناسبك هذا؟

ـ من الرائع لأمي أن تعيش مع عمتك.. إنها تشعر بالوحدة دائماً.. لكنني أنوي البقاء في «نورفولك».

ـ بسبب لينش؟

ـ تعرف تماماً أن لينش لم يكن يوماً ولن يكون أي شيء بالنسبة لي.

وفجأة لم تستطع السيطرة على مشاعرها فانفجرت:

ـ لا أريد العودة إلى هنا لأن هناك الكثير من الذكريات أريد أن أنساها.

اقترب منها:

ـ وهل هذا أمر أساسي؟

رفعت رأسها متحدية:

ـ أجل، إذا كنت أريد استعادة راحة البال.

ـ مسكينة جنيفر! إذن تكمن راحة بالك في قدرتك على نسياني.. أليس كذلك جنيتي؟

استخدامه اسم الدلال الذي اختاره لها تلاعب برباطة جأشها، فاستدارت عنه قائلة:

ـ أيجب أن تعذبني دوماً؟

ـ أجل.. دوماً.. جنيتي.. وهل ظ... أنني سأتركك تبتعدين عني



بمثل هذه السهولة؟ الآن وقد كان لديك الوقت لتفكري بطلبي، هل لي أن أذكرك أن «غلين كونال» يحتاج إلى سيدة له؟

ـ أوه.. تشايس!

واستدارت بسرعة تواجهه.. وجهها مضيء.. وقرأ في عينيها كل ما يريد أن يعرفه.. فتح باب السيارة وأشار إلى المقعد الخلفي:

ـ اصعدي، سنحظى بخلوة هنا أكثر من الخارج لما سأقوله تالياً.

دخلت بخضوع، فالتفت ذراعاه حولها يسأل:

ـ هذا استسلام دون شروط.. أليس كذلك؟ لن تدعيني أنتظر أكثر من هذا؟

كان ردها مكتوماً على كتفه.. لكنه لم يكن رداً سلبياً.. ومع اشتداد عناقه، رفعت ذراعيها متجاوبة معه.

* * *

فراشة المحبة
www.liilas.com